دم الحسين

القصة الكاملة لقتل الحسين والانتقام من القتلة



الطبعة السابعة

إبراهيم عيسى

دم الحسين

الطبعة السادسة أكتوبر ٢٠١٢
الطبعة السابعة ديسمبر ٢٠١٢
دار بلومزبري – مؤسسة قطر للنشر
مؤسسة قطر، فيلا رقم ٣، المدينة التعليمية
صندوق بريد ٥٨٢٥
الدوحة، دولة قطر
www.bqfp.com.qa

صدرت الطبعة الأولى عام ١٩٩٢

الترقيم الدولي: 9789992195635

طبع في مصر بشركة صحارا للطباعة

إبراهيم عيسى

دم الحسين

القصة الكاملة لقتل الحسين والانتقام من القتلة

دار بلومزبري - مؤسسة قطر للنشر
BLOOMSBURY
QATAR FOUNDATION
PUBLISHING

مؤسسة قطر
Qatar Foundation

إهداء

إلى أبي وأمي.

مقدمة

(أ)

كم مرة بكيتُ وأنا أكتب هذا الكتاب!

فجأة، حضر التاريخ كله في حجرة مكتبي. وجدتُ السيوف اللامعة، والدم المُراق، ودفقات الجثث، وصراخ الثكالى، والأحصنة اللاهثة، والحر القائظ، وألسنة النار، وألوان الخيانة، وعتمة الغدر، ودهاليز السياسة، وستائر القصور، وجموع الرؤوس المقصوفة والمذبوحة... وجدتُ كل هذا على المقعد المقابل، وحول حواف المكتب، وفوق المكتب، وتحت أوراقي، وخلف ظهري. واندفع الدم ساخنًا وسخيًّا على أقلامي وأوراقي وكتبي، حتى ظننت أنها النهاية.

ثم إنني رأيت الحسين!

(ب)

لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون.

ولا يستوي ـ كذلك ـ الذين يتعلَّمون مع الذين لا يتعلَّمون.

والتاريخ مُعلِّم عظيم.

ليس ـ إذن ـ من قبيل المصادفة أن يكون المفسِّر العلَّامة ابن كثير، صاحب أهم التفاسير الشارحة للقرآن الكريم، هو نفسه صاحب المجلد الضخم «البداية والنهاية»، أهم مراجع التاريخ الإسلامي كافةً. وليست مصادفة ـ كذلك ـ أن يكون «تاريخ الرُّسل والملوك» للإمام الطبري واقفًا على قدم المساواة مع عطاء الطبري الفكري والديني والتفسيري.

وإنهما ـ وغيرهما ـ عرفا معنى التاريخ، وأنه الساحة المفتوحة لاختبار واختيار الدين والدنيا.

التاريخ ـ قصصًا وحكاياتٍ وسِيرًا ـ مدرسة حقيقية لكل تلاميذ الحقيقة.

والغريب أن أحدًا من الذين يتشدقون ويُفتُون ويرمون الناس بالفتاوى لم يعطِ نصف وقته ـ أو رُبعَه ـ لقراءة التاريخ وفهمه، وليعلم يقينًا أن السياسة غير الدين، وأن الدين ليس مطية السياسة، وأن أناسًا رفعوا المصاحف والسيوف ـ والبنادق ـ بعضهم أمام بعض، مع أنهم لا يختلفون كثيرًا ـ ولا أبدًا ـ في شروح الآيات وفقه السُّنة، وإنما

استخدم كل طرف الآيات والأحاديث لهثًا وراء الحُكم والنفوذ والمال... وقَطع الرقاب.

الدين كانت معركته سهلة.

أما الدنيا فهي معركة دامية.

وأهم ما يُفصح عنه التاريخ أن الدين قد تم استعماله واستخدامه - ولا يزال - لصالح الدنيا. كما أن القيم الشريفة والخِصال الرفيعة تُدهَس دومًا تحت حوافر الخيل وجنازير الدبابات.

(ج)

هل وقته الآن الكلام عن الحسين؟

نعم، في كل وقت نحن في حاجة إلى هذا الزمن، ومع كثرة ما كُتب - وما قُرئ - عن الحسين سيد الشهداء وسيد شباب أهل الجنة (جعلَنا الله من شبابها... يا رب) فإن كثيرًا من العيون والأقلام أغفل الحديث عمَّا بعد مقتل الحسين.

ماذا جرى تحت اسم دمائه الطاهرة؟

حقًّا، يمكن أن ننخدع بالشعارات واللافتات، بدءًا بـ«يا منصورُ أَمِت» وانتهاء بـ«الإسلام هو الحل»، لمجرَّد نبل وعظمة وأهمية الشعار.

إن الشعار يظلُّ - مهما كان - شعارًا.

أما الذي يُطبقه...

أما كيف يُطبقه...

فهذه هي القضية!

(د)

ستجد في هذا الكتاب شيئًا مما أريد أن أقوله، لكن لن تجد كل شيء تمنيت أن أقوله، وعليك أنت أن تقرأ وتخرج بما تريد.

لكن ما أضمنه لك، أمران:

الأول: أنك ستُحِب سيدنا الحسين أكثر.

والثاني: أنك سترى هولًا لا تطيقه، ودماءً لم تعهدها، وأحداثًا أغرب من أن تتخيلها. وكل هذا حقيقي، وسنده الأساسي ابن كثير والطبري.

(هـ)

عندما أعدت قراءة كتابي هذا، قررت أن أحذف منه كثيرًا وأضيف إليه أكثر. لكنني كلما كنت أحاول، أعود فأرى الدم المُراق، والأحصنة اللاهثة، والسيوف اللامعة، وألسنة النار، وألوان الخيانة، ودفقات الجثث، وصراخ الثكالى، وجموع الرؤوس المقصوفة والمذبوحة.

فلم أحذف، ولم أُضِف.

دم الحسين

(تدور الأحداث بين عامي ٦٠ و٦٧ هجريًّا)

الجزء الأول

الخيل فوق صدر الحسين

أنت يا حرٌّ حرٌّ

وقف الحر بن يزيد على فرسه، ينظر بعيون دامعة، وقلب واجف، وبدن مُرتعِد، برعشة أخذت عليه جسده، وأنهكت قلبه. يتحرك بفرسه دائرًا حول نفسه، ملقيًا نظراته على الصحراء الممتدة أمامه، وقد تَحكَّمت فيه أفكاره، وسيطرت عليه أحاسيسه. بدا كأنه ليس الحر بن يزيد، أقوى فرسان قومه، وأعظم قادة الكوفة العسكريين.

كانت حوافر الفرس تخبط في الرمال، فتثير غبارًا، وتفجر ترابًا فوق تلك الربوة التي اعتلاها الحر.

وبين عُمْرين وحياتين وقدرين ومستقبلين، يتردد.

عن يمينه جيش الحسين بن علي بن أبي طالب، الحسين ابن النبي صلى الله عليه وسلم، يحاصره الجنود والحطب والقصب والخشب والنار والخيام، التي يتخذها ابن بنت رسول الله وقاية لظهره وحماية لأهله.

تتصلَّب عيونه في هذه البقعة من «كربلاء» على ابن نبيِّه، ذلك

الذي يُصلِّي عليه ويُسلِّم، ويرجو عفوه وشفاعته، ويُقاتل من أجل دينه، ويُعلي في بنائه.

لكز الحر بطن فرسه وهو يسأل نفسه: ما الذي أوقعني؟ مَن الذي قادني إلى تهلكة نفسي، وبيع الدين بالدنيا؟!

تَذكَّر أوامر عمر بن سعد، قائد جيش يزيد الزاحف بأربعة آلاف جندي وفارس يطلبون دم الحسين أو جرَّه إلى قصر الكوفة، حيث ينتظره زياد بن مرجانة، أمير يزيد بن معاوية على الكوفة، بدمامته، ووحشيته، وسوء خُلقه، وسوأة خِلقته، يفترس عظم ابن النبي العظيم، وينهش في لحم رسالته وحلم إمامته.

ـ ما الذي أوقفني هنا يا أبناء الأفاعي؟

حدَّث الحر نفسه، وهو يلتفت إلى جيش عمر بن سعد، وحسم أمره، وأجبر شيطانه على التراجع.

ـ مقاتلٌ أنت هذا الرجل؟ (يقصد الحسين).

فأجابه عمر:

ـ إي والله، قتالًا أيسره أن تسقط الرؤوس وتطيح الأيدي.

ليست المسألة تهديدًا لكي يتراجع الحسين عن طلب الخلافة، وليست مجرَّد إرهاب ليُسلِّم ليزيد بالبيعة.

إن الأمر جِدٌّ، وإن الهلاك قادم، والحسين مقتول لا محالة، فهو يقف بين ثلاثين أو أربعين رجلًا فقط من أهله وأنصاره وعشيرته.

وحدَه في هذه الصحراء الشاسعة القاتلة. خلفه النيران الناشبة في خيامه، وأمامه أربعة آلاف فارس يقودهم الطامح إلى الإمارة، والأفَّاق، والمنافق، والمريض بالسُّلطة، والذي باع دينه مقابل كيس دراهم، والذي أجبره الخوف وأضعفته النَّفس السيئة، فاندفع لمقاتلة ابن النبي لا كذب، ابن علي بن أبي طالب، ابن فاطمة بنت محمد.

يا الله!

ما أضيع النفس، وأضعف القلب، وأخفَّ الثقل يوم العرض على الميزان!

سمع الحر حوافر فرس تقترب، وارتجاج جسد فوق ظهر الفرس، وهمهمة بعيدة تدنو.

إنه المهاجر بن أوس، صاحبه ورفيقه في رحلة الصحراء، وصفوف الجيش، وسكن الكوفة، والخروج لقتال «الدَّيلم» فجرًا، والصلاة في المسجد، والتسبيح في العشاء، وجلسات الشِّعر أمام نيران تدفئ القلب والصدور في ليل الكوفة.

زعق فيه المهاجر منتفضًا فوق حصانه:

ـ والله إن أمرك لَمُريب، والله ما رأيت منك في موقف أبدًا مثل شيء أراه الآن، ولو قيل لي مَن أشجع أهل الكوفة رجلًا، ما اخترت غيرك، فما هذا الذي أرى منك؟!

التفت إليه الحر وقال:

ـ إني والله أُخيِّر نفسي بين الجنة والنار، ووالله لا أختار على الجنة شيئًا ولو قُطِّعتُ وحُرِّقت!

دفع الحر فرسه فانطلق بالحوافر وزغرد بالصهيل، والمهاجر يتابعه مندهشًا مذهولًا. ودخل بفرسه إلى حلقة الحسين الصغيرة المقاتلة الشجاعة المؤمنة. اقترب منه لاهثًا، واثقًا، مطمئنًّا:

ـ جعلني الله فداك يا ابن رسول الله، أنا صاحبك الذي حبستك عن الرجوع، وسايرتك في الطريق. وإني جئت تائبًا مما كان منِّي إلى ربي، ومواسيًا لك بنفسي، وحتى أموت بين يديك. أفترى ذلك لي توبة؟

نظر إليه الحسين ابن رسول الله، وقال:

ـ نعم يتوب الله عليك، ويغفر لك... ما اسمك؟

فقال:

ـ أنا الحر بن يزيد.

قال الحسين:

ـ أنت الحر كما سمَّتك أمك، أنت الحر إن شاء الله في الدنيا والآخرة.

لا هذا الأمير! ولا هذه الإمارة!

خرج الحسين من المدينة إلى مكة في ليل أرخى سدوله وستائره ومسرحه كله، بأبنائه وإخوته وبني أخيه ومعظم أهل بيته، مدفوعًا بالحماية بالبيت الحرام، والسكن في أمن مكة، بعد أن اشتدت على عنقه الضغوط، وزادت فوق كواهله دعوة والي المدينة «الوليد بن عتبة» بطلب بيعته ليزيد.

وكان معاوية بن أبي سفيان قد تُوفِّي في رجب، لعام ستين من الهجرة، وتولَّى يزيد مقاليد الحكم طبقًا للبيعة السابقة كولي عهد، فأرسل يزيد عاجلًا إلى واليه في المدينة برسائله:

> من يزيد أمير المؤمنين إلى الوليد بن عتبة.
> أما بعد، فإن معاوية كان عبدًا من عباد الله، واستخلفه وخوَّله ومكَّن له، فعاش بقدَر، ومات بأجَل، فرحمه الله، فقد عاش محمودًا ومات برًّا تقيًّا، والسلام.

وكتب إليه في صحيفة كأنها أذن فأرة:

أما بعد، فخذ حُسَينًا وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزُّبَير بالبيعة أخذًا شديدًا ليست فيه رخصة، حتى يبايعوا، والسلام.

وما إن وصلت الرسالة حتى ألحَّ الوليد ـ ثقيلًا ـ على الرجال، مسرعًا في تنفيذ الرسالة والوصية، ومضبوطًا على تلقِّي الأوامر.

لكنَّ الحسين رفض إعطاء البيعة. وما كان منه إلا انتظار يومين، ثم انطلق إلى مكة.

لم يكن رفض الحسين لبيعة يزيد طمعًا في حُكم، أو رغبة في اعتلاء مقعد الخلافة، أو إرثًا تاريخيًّا من العَداء بين علي ومعاوية، ذلك الذي رُفعت فيه السيوف والسِّهام والرِّماح والمصاحف، وخاضوا فيه صراعًا شديدًا، ومعارك شرسة، وانقسامات وفتنًا وانهزامات، وفِرَقًا دينية وسياسية، راح ضحيتها الحسن بن علي (شقيقه في الدنيا، وفي حفادة الرسول، وفي سيادة شباب الجنة) مسمومًا بالعسل، وتحمَّل معاوية وزر دسه إلى فم الحسن.

لم يُبايع الحُسينُ يزيد خليفةً للمسلمين.

ولكن بدايةً: هل بايعه قبلُ وليًّا للعهد وخليفة لأبيه؟

السؤال يستدعي العودة شهورًا إلى الوراء.

كان معاوية قد حضر على موكبه وفي حرَّاسه وبين دعائم دولته إلى المدينة المنورة، ومكث فيها أيامًا، يلتقي رجالات المدينة (الذي يعلم ـ علم يقين الأذكياء، وإدراك رجال السلطة والنفوذ ـ أنهم لن يقبلوا ببيعة يزيد ما عاشوا، وما عاش!).

وهم: الحسين بن علي، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عمر بن الخطاب، وعبد الرحمن بن أبي بكر الصديق.

وأخذهم بالتهديد والوعيد واللِّين والمهادنة، أجرى معهم مفاوضة مطوَّلة، كثر فيها الغمز والتنمُّر، حتى أذعن هؤلاء إلى الأمر رضوخًا مؤقتًا، وحسبة معلومة، وتأجيلًا لفتق الجرح، وطلبًا لرحمة المولى عز وجل بعباده أن يقضي أمرًا، ويبكِّر بإبراء الذِّمم وحقن الدماء.

ـ لقد علمتم سيرتي فيكم، وصِلتي لأرحامكم، وحملي ما كان منكم، ويزيد أخوكم وابن عمِّكم، وأردت أن تقدِّموه باسم الخلافة...

وأكمل معاوية خطبته في الرجال الأربعة وسط حشد من الناس:

ـ وتكونوا أنتم تَعزلون وتُؤمِّرون وتَجبُون المال وتُقسِّمونه...

(وتكونوا أنتم تعزلون وتؤمرون وتجبون المال وتقسمونه!)

لقد قـدَّم معاوية عرضه على قائمة المفاوضات، ذكيًّا ـ كعادته ـ مُكرِّسًا الأمر كله لصالح نفوذه ونفوذ مصالحه، فقدْ أغرى كبار معارضي حكومته وخلافة ابنه بامتلاك الزمام الفِعلي، العزل والإمارة والجباية والقسمة، على أن يكونَ يزيد صورة في إطار فقط.

لكنَّ الرجال الأربعة كانوا يدركون ـ ببصر وبصيرة ـ أنها حيلة معاوية السياسية، لا وعد معاوية صاحب الرَّحم والكرم.

فأجابه ابن الزبير بأن يصنع ما صنعه الرسول، بترك الأمر من دون خليفة، أو كما صنع أبو بكر، بالعهد إلى رجل ليس من بني أبيه، أو كما فعل عمر، في ترك الأمر شورى.

لكنَّ معاوية غضب، وأسفر عن نيَّته، وطوى ستار السياسة، ليظهر المسرح مكشوفًا:

- أعْذَر من أنْذَر، إني كنت أخطب فيكم، فيقوم إليَّ القائم منكم فيكذِّبني على رؤوس الناس، فأحمل ذلك وأصفح. وإني قائم بمقالة، فأقسم بالله لئن ردَّ عليَّ أحدكم كلمة في مقامي هذا، لا ترجع إليه كلمة غيرها حتى يسبقها السيف إلى رأسه فلا يبقين رجل إلا على نفسه.

ثم أمر صاحب حرسه أن يقيم على رأس كل منهم رجلين، مع كل واحد منهما سيف، وقال له:

- إن ذهب رجل منهم يرد عليَّ كلمة بتصديق أو تكذيب، فليضرباه بسيفيهما.

ثم خرج بهم إلى المسجد، ورقي المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، وقال:

- هؤلاء الرهط سادة المسلمين وخيارهم، ولا يُبرَم أمر دونهم، ولا يُقضى إلا على مشورتهم، وإنهم قد رضوا وبايعوا ليزيد، فبايعوه على اسم الله.

فبايع الناس.

لكن التهديد بالقتل وسفك الدماء إذا رفعت المعارضة كلمة فوق شفتيها، لا يوحي بذكاء معاوية المعروف، إذ كان يهدِّد هنا بإراقة الدماء في المسجد. ودماء مَن؟! هؤلاء الأربعة بأهليهم وذريتهم. وأين؟! في مسجد رسول الله ومدينته!

وهذا فعلٌ ـ على الرغم من تردُّده على بعض الألسنة والمراجع التاريخية ـ لا يُقدِم عليه معاوية المسلم والحاكم وصاحب الرَّحِم، والسياسي ورجل الدولة، إذ يعني ذلك ببساطة ـ وإذا ما أعلن واحد منهم فقط تذمره فقُتل ـ حربًا بدوية، وصراعًا أهليًا، وقضاءً مقضيًا، وهو ما كان سيزلزل أركان عرش ما زال معاوية يتحسس دعائمه ويؤسس أعمدته.

ومع ذلك، أقبل، وأقدم، وفعلها.

إن رغبة المُلك وشهوة الحكم أضلَّت، ودوَّت.

الثابت هنا، أن معاوية كان يعلم عدم رضاء هؤلاء السادة عن يزيد، بل وعن طريقة التوريث التي غرسها في المجتمع الإسلامي لأول مرة.

والثابت أيضًا، أن السادة قد صمتوا، واكتفى معاوية بصمتهم، وترك تبعة ذلك، وترك وصيته لتُعالِج ـ مع سلطة يزيد القادمة ـ أمورًا ظلت مُعلَّقة.

ليلةَ خروج الحسين من المدينة إلى مكة، كان يدرك تبعة ذلك ومشقة الأمر كله، ولكن كان يدرك أيضًا أنه بدينه ودنياه وأهله ومستقبله أمام هذا النهج الوراثي الملكي الجائر في الحكم واغتصاب السُّلطة وظلم الناس وقهر العباد وجبر الجمهور على منح بيعته بالدم.

وكان أيضًا يدرك سوء يزيد وضعفه وهزال خلقه وانحلال سياسته، لا قياسًا إلى الحسين ـ كمنافس ـ فلا مجال للمقارنة بين ابن بنت رسول الله، الحسين الزاهد، المقاتل، السيِّد، الحليم، المؤمن، الحكيم، سيد شباب أهل الجنة، ذلك الذي دعا له النبي صلى الله

عليه وسلم مع أخيه الحسن: «اللهم إني أُحبهما فأحببهما، وأحبب مَن يُحبهما»، وبين يزيد.

يزيد لا يصلح، لا قياسًا إلى الحسين، لكن قياسًا إلى الشخص الذي يمكن أن يكون حاكمًا لأُمة المسلمين.

يزيد لا يصلح!

ولا يمكن أن يصلح مَن كان مثله غارقًا في الخمر، شَغوفًا بالملذَّات، بانصرافه عن المهامِّ القتالية والاستشهادية، وولعه باللهو والصيد، وقلة عقله الديني، وهوان الفقه والإسلام عليه، وعدم درايته وفهمه لشؤون السياسة والحكومة.

يزيد - باختصار - لم يكن الحاكم الذي يؤتمن على أُمة، فضلًا عن صعوده لسرير العرش محفوفًا بالسيوف، ومرفوعًا بالرماح، ومدفوعًا بنفوذ أبيه وجلَّادي قصره، وخبث أمرائه وطمع أوليائه.

رفض الحسين أن يكون هذا الأمير ملكًا على هذه الإمارة.

أن يكون هذا الرجل قوَّامًا على رجولة مسلمة ورجال أشداء وصحابة ما زالوا يعيشون.

أبدًا!

ثم كان لا بد من موقف.

أقبِل

بسم الله الرحمن الرحيم

لحُسَين بن علي، من سليمان بن صرد، والمسيَّب بن نجبة، ورفاعة بن شدَّاد، وحبيب بن مظاهر، وشيعته من المؤمنين والمسلمين من أهل الكوفة.

سلام عليك. فإنا نحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد...

فالحمد لله الذي قصم عدوَّك الجبار العنيد، الذي انتزى على هذه الأُمة فابتزَّها أمرَها، وغصبها فَيْأها، وتأمَّر عليها بغير رضا منها، ثم قتل خيارها، واستبقى شرارها، وجعل مال الله دُولةً بين جبابرتها وأغنيائها. فبُعدًا له كما بعُدَت ثمود. إنه ليس علينا إمام، فأقبِل لعل الله أن يجمعنا بك على الحق، والنعمان بن بشير في قصر الإمارة، لسنا نجتمع معه في جمعة، ولا نخرج معه إلى عيد. ولو قد بلَغَنا أنك قد أقبلت إلينا أخرجناه حتى نلحقه بالشام إن شاء الله والسلام ورحمة الله عليك.

ثلاث وخمسون صحيفة وخطابًا ورسالة موقَّعة باسم رجل أو اثنين أو ثلاثة، أرسلتها جموع الجماهير المنتظرة في الكوفة، إلى الحسين في مكة، تشرح له حالها، وتطالبه بالقدوم لتولِّي الإمامة، وصعود العرش، والسير في الأُمة بسيرة جده، وقوة أبيه، وإخلاص لا ينتهي.

وكما وصفت له رسالة أخرى الحال:

> أما بعد، فقد اخضرَّ الجناب[1]، وأينعت الثمار، وطمَّت الجمام[2]، فإذا شِئتَ فأقدم، على جند لك مجنَّد. والسلام عليك.

كانت الإرادة الشعبية تُطالب بالحسين، وتؤكد ثورتها ـ أو هكذا تدَّعي ـ على الحكومة القائمة والظلم المقيم.

وتحقَّق أول شروط الخلافة كما يراها الحسين في رسالة تحدِّد نظرته إلى الحكم، ورؤيته للسلطة، ومفهومه لإرادة الناس وبيعة الجمهور:

> وقد فهمتُ كلَّ الذي اقتصصتم وذكرتم، ومقالةَ جُلِّكم[3] إنه ليس علينا إمام فأقبِل لعل الله أن يجمعنا بك على الهدى والحق. وقد بعثتُ إليكم أخي وابن عمي وثقتي من أهل بيتي، وأمرتُه أن يكتب إليَّ بحالكم وأمركم ورأيكم، فإن كتب إليَّ أنه قد أجمع رأيُ مَلَئكم وذوي الفضل والحِجَى منكم

---

(١) أجناب الأرض.

(٢) ارتفع الكيل وفاض.

(٣) معظمكم.

على مثل ما قدمَت عليَّ به رُسلكم وقرأتُ في كتبكم،
أُقدِم عليكم وشيكًا إن شاء الله، فلعمري ما الإمام
إلا العامل بالكتاب، والآخذ بالقسط، والدائن بالحق،
والحابس نفسه على ذات الله. والسلام.

الحسين يرى أن وصوله إلى الحكم لا يتمُّ إلا بشروط واضحة ومحددة: الإجماع الجماهيري من الناس والعامة وذوي الحُجة والعقل معًا.

ثم إن شروط الحاكم واضحة أيضًا: العامل بالكتاب، والآخذ بالقسط (العادل)، والدائن بالحق. وهذا ما لا يتوفر بالمرة في يزيد، الذي صَعِد بالرُّمح، وتَربَّع بالظلم.

واستعد الحسين بإرسال مسلم بن عقيل (ابن عمِّه) إلى الكوفة، لكي يستطلع الموقف، ويجمع الرأي والمشورة، ويُعِدَّ العُدة، ويُمهِّد الطريق لحضوره.

وعلى الرغم من كل ما واجهه الحسين من تحذيرات وإنذارات متكررة لا تنقطع، ولا يشكُّ هو في صدقها وحرارتها وطُهرها وحرصها عليه وعلى حياته - إذ أكدت له أن الواقع ليس ممهَّدًا، وأن التربة ليست خصبة، وأن الكوفة ليست صادقة، والإمارة ليست صامتة - فإنه أصرَّ على الخروج، وآمن بالذَّهاب.

لماذا؟!

القلوب والسيوف

لماذا؟

كان هذا السؤال يواجه الحسين كلما مرَّ على متر في الصحراء العربية الواسعة مُتجهًا إلى العراق.

لماذا؟

دخل عليه عمر بن عبد الرحمن بن الحارث المخزومي والحسين ما زال بعدُ في مكة. وقال له:

ـ إنه قد بلغني أنك تريد المسير إلى العراق، وإني مشفق عليك من مشقة أنك تأتي بلدًا فيه عُمَّاله وأمراؤه، ومعهم بيوت الأموال، وإنما الناس عبيد لهذا الدرهم والدينار، ولا آمن عليك أن يقاتلك من وعدك نصره، ومن أنت أحب إليه ممن يقاتلك معه.

استمع الحسين إلى نصيحة ابن عبد الرحمن، وشكر عقله وبيانه، لكنه خرج من مكة!

ومضى إليه عبد الله بن عباس، وسأله:

ـ أتسير إلى قوم قد قتلوا أميرهم، وضبطوا بلادهم، ونفوا عدوَّهم؟ فإن كانوا قد فعلوا ذلك فسر إليهم، وإن كانوا إنما دعوك إليهم وأميرهم عليهم قاهر لهم، وعُمَّاله تجبي بلادهم، فإنهم إنما دعوك إلى الحرب والقتال، ولا آمن عليك أن يُغرُوك ويَكْذِبُوك ويخالفوك ويخذلوك، وأن يُستنفَروا إليك فيكونوا أشدَّ الناس عليك.

فقال له الحسين:

ـ فإني أستخير الله وأنظر ما يكون.

ولكن خرج.

وعلى مبعدة أميال من مكة لقيه رجل عراقي قادم للحج، فسأله الحسين عما وراءه، فأخبره الرجل ملتاعًا:

ـ القلوب والسيوف مع بني أمية، والقضاء بيد الله.

فأجابه الحسين:

ـ صدقت.

ولكنه مضى!

وبينما هو في طريقه التقى الفرزدق بن غالب الشاعر العربي الشهير، توقف الفرزدق، وسلَّم على الحسين، وقال له:

ـ أعطاك الله سُؤْلَك، وأملك في ما تُحِب.

فقال له الحسين:

- بيِّن لنا نبأ الناس خلفك.

قال الفرزدق والألم ينهشه:

- قلوب الناس معك، وسيوفهم مع بني أمية، والقضاء ينزل من السماء، والله يفعل ما يشاء.

فردَّ عليه الحسين:

- صدقت، لله الأمر، والله يفعل ما يشاء، وكل يوم ربنا في شأن. إن نزل القضاء بما نُحِب فنحمد الله على نعمائه، وهو المستعان على أداء الشكر، وإن حال القضاء دون الرجاء فلم يتعدَّ من كان الحق نيته والتقوى سريرته.

ثم حرَّك الحسين راحلته، وقال:

- السلام عليكم.

ثم افترقا.

وعلى الرغم من إجابة الفرزدق الشافية التي تُشبه سيف الكي فوق الجرح ليشفى أو يلتئم، وعلى الرغم من نبرة الرجاء والدعاء في لغة الحسين، فإنه استمر ماضيًا نحو العراق.

حتى لمَّا بلغه النبأ، لم يرجع!

ولكن أي نبأ؟

كَذَبُونا وغَرُّونا.. وخَذلونا وقَتلونا!

في خيمته مُحاصَرًا بالأنباء القادمة، والريح المشتعلة في سعف النخيل المترامي، والعشب المحفور في التراب الأصفر، والسراب المعلن عن وجوده الأسطوري، وارتواء العطشان المستحيل، استقبل الحسين بعض الوافدين من الكوفة. ومرة أخرى يسألهم:

ـ أخبروني خبر الناس وراءكم.

قال أحدهم:

ـ أما أشراف الناس فقد أعظمت رشوتهم، ومُلئت غرائرهم[(١)]، يُستمال ودهم، ويُستخلص به نصيحتهم، فهم ألبٌ[(٢)] واحدٌ عليك. وأما سائر الناس بعد، فإن أفئدتهم تهوي إليك، وسيوفهم غدًا مشهورة عليك.

---

(١) جمع غرارة، وهي الجوَال.

(٢) مجتمعون بالظلم والعداوة.

كان هذا نص الحوار في مشهد السيناريو الأسود الذي بدأت مشاهده عندما دخل مسلم بن عقيل ـ رسول الحسين ـ الكوفة، قادمًا بالأمل في استنقاذ الناس من ضعفهم، واستخلاص العدل من أنياب طغاتهم.

وفرح الناس به وهُرِعوا إليه، يلمسون أطراف ثوبه، يعانقون بأناملهم كفًا لمست الحسين.

وأخذ مسلم يتلقّى البيعة تلو البيعة، من وجوه أبشرت، وقلوب أقبلت، وعقول تأهّلت، وأجساد تأهّبت، وسيوف أُشرِعَت، وصفوف تماسكت.

وأحصاهم مسلم فوجد بيعة القوم اثني عشر ألفًا من أهل الكوفة.

اثنا عشر ألفًا من أنصار الحسين!

بينما تسلل في الوقت نفسه عبيد الله بن زياد، والي البصرة، الذي ولّاه يزيد ولاية الكوفة، بعد أن كاد يعزله عن الأولى، لولا مشورة دسّت في أذنيه نصيحة أكدت له أن الذي يمكنه تصفية الكوفة دمويًا وسياسيًا هو عبيد الله بن زياد فقط.

هو، لها!

وهي، له!

طاغية لمدينة متمرِّدة!

ومدينة متمرِّدة القشرة لصاحب مُدية تغوص تحت السطح، وتفتك بغشاء الغرائز الهش!

دخل عبيد الله إلى الكوفة، ملثَّمًا، يسير بجوار الحائط، بينما يُلقي عليه الناس تحيتهم حارةً:

ـ أهلًا بابن رسول الله.

ويُهلِّل الصِّبية في أحضان أمهاتهم بعد أن قفزوا نحو وصيد الباب، وألقوا بحجارة اللعب واللهو:

ـ لقد جاء الحسين يا أمي.

وما لبثوا أن أدركوا، إنما هو عبيد الله بن زياد لا الحسين. فانتبهوا، وتفرَّغت عقولهم للتخمين فيما سيحدث.

كانت الكوفة ملتهبة تمامًا، ومستعدة لإشعال فتيل الثورة، حين دخل رجل من أهل حمص إلى المسجد، وطلب من أحد الشيوخ أن يأخذ بيده إلى رسول الحسين، ليُعطي له البيعة وثلاثة آلاف درهم، ليتقوى بها في معركته القادمة. فرح الشيخ، وأخذه إلى مسلم بن عقيل، فأعطى البيعة والمال، وانصرف مودِّعًا. ولكن لما ابتعد عن الدار التي كان بها مسلم، تَوَجَّه رأسًا إلى قصر الإمارة، وفي دقائق كان بين يدَي عبيد الله بن زياد الوصف التفصيلي لمكان إقامة مسلم وأنصاره.

وعَلِم مسلم بالخبر، فخرج مسرعًا من دار هانئ بن عروة، مقر الحصول على البيعة، وانتقل إلى دار أخرى.

وما لبث شخص يُدعَى محمد بن الأشعث (كُتب علينا أن نلقى مثله بين قدمَي ويدَي كل سلطان). قاد هذا الأشعث ـ تأمَّل

وتتبَّع ـ عددًا من أنفار وحُراس عبيد الله وقدِم إلى دار هانئ، واستدعاه للأمير.

وهناك، كشف عبيد الله الحيلة، وأخرج عميله الذي بايع منذ قليل مُسلمًا وأعطاه المال (الذي لا نستبعد أن يكون مميَّزًا بعلامة ما كعهد شرطة وقتنا الحالي)، فهتف هانئ بمجرَّد رؤيته للعميل:

ـ أصلح الله الأمير، والله ما دعوته إلى منزلي، ولكنه جاء فطرح نفسه عليَّ.

صرخ فيه عبيد الله بن زياد، وهو يعصف به الغضب، ويدك الأرض بقدميه:

ـ ائتني به.

فاستعاد هانئ قوته، وأدرك موقفه، وثبت على رايته:

ـ والله لو كان تحت قدميَّ ما رفعتهما عنه.

وإذا كان لأحد أن ينشر صورة هانئ بعد هذه المواجهة، فلن يكون أبعدَ من صور الصفحات الأولى للصحف اليومية: وجه مهشَّم، ودماء فوق اللحية، بشرة انتُزعت، وعلامات واضحة لسياط الجلَّاد؛ فقد مارس عبيد الله مع هانئ صنوف العذاب التقليدية، من التنكيل والتحريق والضرب، ثم أمر بسجنه.

وتسرَّب الخبر ـ كعادة كل الأخبار في قصور الإمارة الظالمة ـ إلى عشيرة هانئ بن عروة (بني مذحج) على أنه قُتل، فقَدِموا في

جمع عظيم، واحتشدوا في مظاهرة واضحة حول القصر، فخرج عليهم محمد بن الأشعث ـ مرة أخرى ـ يخبرهم أن الرجل سليم معافى، وأن أحدًا لم يلمسه، وهو حي يتفاوض مع الأمير، ويطلب منهم الرحيل. فرحلوا.

ونزل عبيد الله إلى المسجد، فصعد المنبر ومعه أشراف الناس وشُرطته وحَشَمه، فحمد الله وأثنى عليه (آه من مُقدِّمات خُطَب الطغاة!):

ـ أما بعد، أيها الناس، فاعتصموا بطاعة الله وطاعة أئمتكم، ولا تختلفوا ولا تَفرَّقوا، فتهلكوا وتُذَلُّوا وتُقتَلوا وتجنوا وتحرموا، إن أخاكَ مَن صَدَقَك، وقد أعذر من أنذر.

وما كاد ينزل من فوق المنبر، حتى كانت الصيحات قد ملأت المسجد، فارتجَّت لها فرائص الأمير، فقد كان الهتاف عاليًا مدويًا:

ـ جاء ابن عقيل. جاء ابن عقيل.

فأسرع عبيد الله هاربًا إلى قصره، وخلفه شُرطته.

وكان مسلم بن عقيل قد نادى في أصحابه أن يخرجوا إلى الناس، وقد امتلأت بهم الدُّور، واحتشدت جموعهم بالأسطح، وازدحمت صفوفهم في الشوارع. ومن بين ثمانية عشر ألفًا من مبايعيه، خرج مسلم بصيحته:

ـ يا منصور أَمِت!

وهتف بالنداء الآلاف:

ـ يا منصور أَمِت!

وسار أربعة آلاف جندي ليقودهم مسلم إلى مقعد الإمارة، فغلَّق عبيد الله الأبواب، واجتمع القادة (ثلاثون شرطيًّا وعشرون رجلًا من أغنياء ومليونيرات الناس!) في الغرفة الواسعة المطلة على ساحة القصر، وهدير الغضب يسطع في سماء الكوفة المظلمة.

أربعة آلاف خرجوا مع مسلم إلى القصر.

الطريق في سرعتهم واحتشادهم لا يستأهل أكثر من دقائق، وفي انتظامهم لا يستدعي أكثر من سويعات قليلة. هذا الوقت كان كافيًا أن يبقى فقط مع مسلم ثلاثون جنديًّا. ثلاثون جنديًّا!

٣٩٧٠ جنديًّا انصرفوا في ساعات عن نصرة مسلم، وباعوا، بخوفهم وجزَعهم وضعفهم، الحسين إلى ابن زياد (ابن مرجانة).

فقد لعبها ابن زياد لعبة كاملة الصحة والدهاء وهو في لحظة قاتلة كاد فيها رأسه يُعَلَّق على أعلى خشبة في الكوفة. واعتمد في هذا على أضلع الخيانة الأساسية (التي ما كان أي زعيم سياسي في القرن الخامس عشر الهجري يفعل غيرها، مع الاحتفاظ بمقام التطور العلمي فوق الرؤوس).

ماذا فعل ابن مرجانة؟

لم يكن معه إلا ثلاثون جنديًّا أشبه بالحرس الجمهوري، ولكنه

أرسلهم إلى بوابات المدينة ومداخلها، يلتقون بالآلاف الوافدة للقتال مع مسلم، يدخلون إلى قائد كل فريق، ويصافحونه ويحيُّونه ويردُّ بأحسنَ منها، ويطلبون منه أن يحفظ الدم ويتقي الله في أهله وعشيرته، ويأتي إلى ابن زياد فيفاوضه ويسمع منه وله، ولما يدخل القصر ويسقط في الشرك، يُسجَن فورًا! حدث هذا مع الأعلى بن يزيد، وعمارة بن صحلب، وغيرهم. فجلس القادة، وانصرف العسكر، وتَردَّد الجمهور.

ثم ما كان منه إلا أن يخطو الخطوة الثانية. فأرسل إلى أشراف القوم، أصحاب المصلحة الحقيقية في بقاء يزيد بن معاوية خليفة وابن زياد واليًا، حيث الثراء للأثرياء، والسلطان للأشراف، والعدل لهم وحدهم. وليبقَ الفقراء لبكاء الليل، وصدقات الأعياد، وموائد الرحمن في رمضان. إنهم الأشراف الأثرياء، أصحاب المصلحة الحقيقية في غياب العدل ورمزه.

قام هؤلاء الأشراف، وعلى رأسهم محمد بن الأشعث ـ بالطبع ـ بأكمل ما يمكن أن تقوم به إذاعات العدو الموجَّهة وصحفه المشتراة.

وبثُّوا دعايتهم في الآلاف:

ـ أيها الناس، الحقوا بأهاليكم، ولا تُعجِّلوا الشر، ولا تُعرِّضوا أنفسكم للقتل، فإن هذه جنود أمير المؤمنين يزيد قد أقبلت، وقد أعطى الله الأمير عهدًا: لئن أقمتم على حربه ولم تتصرفوا من عشيَّتكم، أن يحرم ذريتكم العطاء ويفرق مقاتليكم في مغازي أهل الشام على غير طمع، وأن يأخذ البريء بالسقيم، والشاهد

بالغائب، حتى لا يبقى له فيكم بقية من أهل المعصية إلا أذاقها وبال ما جنت أيديها.

هذا البيان ـ بحذافيره ـ تم صَكُّه على مدى عشرات القرون الماضية، لتثبيط الهِمَم، وشراء الذِّمم، والضغط فوق الضعف، واللعب في أعماق الجرح، ومغازلة ثم مضاجعة الغرائز.

- الوعيد بالجيوش الخارجية القادمة تعصف وتقتل وتنصر.
- التهديد بالحرمان من العطايا وتشريد الأبناء في الجندية والمغازي.
- الإنذار بأخذ البريء بالسقيم، والشاهد بالغائب، من دون تفرقة، وبعقاب جماعي شامل.
- انتظار الوبال القادم والمنتقم.

الخطة الإعلامية مُحكَمة، والدعاية السوداء بلغت مداها، إلى الحد الفاجع الذي كانت فيه المرأة تأتي إلى ابنها أو أخيها فتقول: «انصرف، الناس يَكْفُونك[١]». ويجيء الرجل إلى ابنه وأخيه فيقول: «غدًا يأتيك أهل الشام، فما تصنع بالحرب والشر[٢]؟ انصرف». فيذهب معه.

فما زالوا يتفرقون ويتصدعون ويرحلون، حتى نظر مسلم حوله بعد صلاة المغرب فلم يجد إلا ثلاثين نفسًا!

---

(١) يقومون بالأمر وأنت عنه بعيد.

(٢) لا طاقة لك بالأمر، ولا ناقة لك فيه ولا جمل.

مَن يضبط مشاعر هذا الرجل في هذا الوقت العصيب واللحظة المميتة؟! ٣٩٧٠ جنديًا يرحلون عن قائدهم، فيظل وحيدًا في المسجد بلا سند وبلا درع!

لم يكن مسلم بن عقيل ساعتها يشعر بشيء لنفسه، لكن كان همُّه الأول الأوحد على الحسين القادم من جنة الحُلْم بالعدل إلى صحراء الواقع المظلم! خصوصًا أن مُسلمًا خرج من باب المسجد في عشرة فقط من جنوده، ثم صار وحيدًا في ظلام الكوفة!

وحيدًا.

كأن الحسين على وعد بالخيانة دائمًا، تحول بينه ـ أشرف ما في عصره وعصرنا وجودًا ورمزًا ـ وبين تحقُّق الهدف وبلوغ المرام. وكأن القدر يؤكد له ـ ولنا ـ أن أوضع ما في الإنسان يبرز يوم يكون أشرف ما فيه قد أُسر داخل المال، وسُجن في قلب الخوف، واعتُقل في جُبِّ المطامع.

فقد خرج مسلم من المسجد وحيدًا، واستند بعد تعب ومشقة وعطش وجوع إلى سور قديم لمنزل أكثر قدمًا، فخرجت سيدة من الدار سألته، فسألها الماء، فأسقته وأغلقت بابها دونه. ولكنها لمَّا عادت وفتحت بابها مرة أخرى وجدته، فنهرته، فعاتبها، وأخبرها أنه مسلم بن عقيل رسول الحسين وصاحب بيعته، والمخدوع بجموع الآلاف، والمظلوم بالثقة في الناس:

ـ كَذَبني هؤلاء القوم وأغرَوني.

فأدخلته بيتًا تملكه إلى جانب دارها، ولكن ابنها حضر بعد لحظات، فرآها تُكثِر الدخول والخروج من الدار إلى البيت المجاور، فاستجوبها، وألحَّ عليها، فأخبرته طالبةً منه حفظ السر وصَون الأيمان.

وبينما يستوثق عبيد الله بن زياد من انصراف الآلاف وعتق رأسه من موت محقَّق، وماله من مصادرة أكيدة، وسلطانه من إزاحة مؤكدة، جاء محمد بن الأشعث يخبره أن ابن السيدة تلك أفشى لابنه السر، لعله يذكره عند السلطان، وأخبره بوجود مسلم في الدار. فأرسل عبيد الله سبعين رجلًا حتى أتوا الدار، فلما سمع عقيل حوافر الخيل وأصوات الرجال، عرف أن غدرًا ـ مجدَّدًا ـ قد أحيق به، وأن حصارًا قد ضُرب حول الدار، فخرج إليهم مستشهدًا بسيفه، وشدَّ عليهم، وضربهم حتى أخرجهم منها مرتين، بينما سالت الدماء على شفتيه وغطَّت لحيته. فلما رأوا قوته وبسالته، ألقوا عليه الحجارة، وأشعلوا النار في القصب ورموه به، فخرج عليهم الرجل بسيفه يقاتلهم في السكك والحواري، حتى أقبل عليه محمد بن الأشعث صارخًا:

ـ يا فتى، لك الأمان، لا تقتل نفسك، إنك لا تكذب ولا تخدع ولا تفر، إن القوم بنو عمِّك وليسوا بقاتليك ولا ضاربيك.

وكان مسلم قد بلغ من الجروح بالسيوف والرماح، والإجهاد من القصف بالحجارة والنيران، والعتمة من الدماء التي كست وجهه، ما دفعه إلى الارتكان إلى حائط والهمس للأشعث:

ـ آمِنٌ أنا؟

قال الأشعث:

ـ نعم.

وأكد القوم:

ـ نعم.

فصدقهم بحسن نية المثاليين، ونقاء الأتقياء.

فاقتربوا منه، واجتمعوا حوله، وانتزعوا سيفه من يده.

فدمعت عيناه، وهمس:

ـ هذا أول الغدر!

وبكى حرًّا وحارًّا.

فقال له أحدهم:

ـ إن من يطلب مثل الذي تطلب إذا نزل به مثلُ الذي نزل بك، لم يبكِ.

فأجابه ابن عقيل:

ـ إني والله ما لنفسي أبكي، ولا لها من القتل أرثي، ولكني أبكي الحسين وآل الحسين.

ومن أول الغدر إلى آخره، تسير الحوادث وتمر الأحداث.

فيدخل مسلم بن عقيل مكبَّلًا بأغلاله إلى قصر ابن زياد، ويجد عنده عمر بن سعد بن أبي وقاص (قائد جيش ابن زياد وقاتل الحسين)،

فيطلب منه أن يأتمنه الوصية الأخيرة، فيرفض عمر في نذالة غريبة الاستجابة حتى يأذن له الأمير!

- لا تمتنع أن تنظر في حاجة ابن عمِّك.

ويستجيب عمر، فيطلب منه مسلم أن يسدِّد دَينًا عليه في الكوفة (سبعمائة درهم)، وأن يواري جُثَّته بعد الممات، وأن يبعث للحسين أن يرجع. فيخون عمر بن سعد، ويُذِيع وصيَّته كاملةً على ابن زياد، ولا ينفِّذ منها شيئًا!

ويثور ابن زياد على مسلم:

- يا ابن عقيل، أتيتَ الناس وأمرُهم جميعٌ وكلمتُهم واحدةٌ، لتشتِّتهم وتفرِّق كلمتهم، وتحمل بعضهم على بعض؟

فيردُّ مسلم:

- والله إن الله لَيعلم أنك غيرُ صادق، وأنك قلتَ بغير علم، وأني لستُ كما ذكرتَ.

واتهمه مسلم بوضوح كامل بأنه يَلِغُ في دماء المسلمين وَلغًا، فيقتل النفس التي حرَّم الله قتلها، ويقتل النفس بغير نفس، ويسفك الدم الحرام، ويقتل على الغضب والعداوة، وعلى سوء الظن، وهو يلهو ويلعب كأن لم يصنع شيئًا.

فانتصب ابن زياد حاكمًا ظالمًا، وواليًا جائرًا، وديكتاتورًا بشعًا متكررًا:

ـ اصعدوا به فوق القصر، فاضربوا عنقه، ثم أتبعوا جسدَه رأسَه.

فجَرُّوا مسلمًا إلى السطح وهو يكبِّر ويستغفر ويسبِّح الله ويصلِّي على رسوله.

وقد أذاع قاتله أن آخر كلمات قالها مسلم بن عقيل قبل موته: «اللهم احكم بيننا وبين قوم كَذَبونا وغَرُّونا، وخَذلونا وقَتلونا».

ثم ضُرب عُنقه، وأُلقي بجسده من فوق القصر، وبعد لحظات من الصمت المُفزِع، ألقوا برأسه فوق بلاط القصر!

لا...

ـ يا أبتِ، لا أراكَ اللهُ سوءًا، ألسنا على حق؟

قالها علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، اسمًا طويلًا متصلًا بجدود عظماء وآباء رجال، معطَّرًا ببيت النبوة، فوَّاحًا بنضرة الشباب ووضوء التقوى وصلاة المناضلين.

قالها علي بن الحسين، على رمال ساخنة، وبين أحصنة أعياها السفر، وخيام أضناها طول الامتداد والطَّي.

قالها أمام والده (رضي الله عنه)، متشرِّبًا نور وجهه، متعطشًا لسناء حديثه، مؤمنًا بصدقه، مكافحًا لهدفه، مناضلًا لربه.

أشرق وجه الحسين وهو يحيط ابنه بنظرات الإكبار والحب، واثقًا بنبله وعظمة سلالته:

ـ بلى والذي إليه مرجع العباد.

فأجاب علي متدفقًا:

ـ إذن لا نبالي، ونموت مُحِقّين.

ربَّت الحسين على كتفه، ولمس شعر رأسه، وضمه إلى صدره:

ـ جزاك الله من ولدٍ خيرَ ما جزى ولدًا عن والده.

سؤال لا يبحث عن إجابة: «ألسنا على حق؟».

إجابة لا تنتظر سؤالًا: «بلى والذي إليه مرجع العباد».

على الرغم من كل التحذيرات، فإن الحسين أصر على الْمُضِي قُدمًا في اتجاه الكوفة، اتجاه قدري حتمي. كأنه يصير ـ ويسير ـ إلى ما لا بد منه ولا مفر منه.

على الرغم من وصول النبأ المروِّع بقتل مسلم بن عقيل، ابن عمِّه ورسوله، ورافع رايته وشعاره، وممثله السياسي والشخصي، وسفيره ووزيره، فإنه لم يعدل عن قراره، ولم ينثنِ له عزم، أو يتراجع له رأي.

هنا يسطع دور الشهداء والعظماء لتحويل مقبض باب التاريخ في اتجاه الخروج أو الدخول.

وكما وقف نبيُّنا العظيم مهاجرًا من مكة، واقفًا على حدودها ـ التي باتت غير آمنة ـ دامعًا بدموع شريفة عظيمة: «والله إنكِ لأحَبُّ بلاد الله إليَّ، ولولا أن قومي أخرجوني منك ما خرجتُ»، وقف أيضًا الحسين بن علي في راحلته، وبين أهله، وفي خفاء الهجرة الأولى أيضًا، مخاطبًا هذه البيوت، وتلك الشخوص، وهذا الفضاء، وهاتيك الحدود والجبال وذكريات الأمس: «والله لَأنْ أُقتلَ خارجًا منها بشبر

أحب إليَّ من أن أُقتَلَ داخلًا منها بشبر. وايم الله، لو كنتُ في جحر هامة من الهوام لاستخرجوني حتى يقضُوا فيَّ حاجتهم».

كان يعلم سلفًا أنه حتمًا مقتول، وأن سيوف الظلم والجَور والخلافة المغتصَبة - لا منه ولكن من الناس والمسلمين - لن تتركه لحاله.

كان يدرك ببصيرة - نراها الآن نحن بقدراتنا المحدودة بعد مئات من السنين، بينما كانت جِدَّ شاقة وصعبة ومذهلة لمعاصريه - أن يزيد لن يرضى منه بغير البيعة، وأن أمير المدينة لن يدعه يفلت من دون قولها، وأن أمير مكة لن يحفظ للإسلام دِينًا، ولا للنبي كرامة من دون أن يتمكن من الحسين فيستنطقه بالبيعة.

وكان من الممكن أن يتركوا الرجل وشأنه، وإن لم يبايع، ويكفي يزيدَ الملايين (٩٩,٩٪) من أصوات أُمته من أقصاها إلى أقصاها، أن ترفع رأسها بالبيعة - خوفًا أو طمعًا لا يهم يزيد ولا زبانيته - لكنهم أصرُّوا أن ينتزعوا من الحسين آخر قطرة في عِرق الأمة الإسلامية.

لا بد أن يبايع.

فبيعته تعني منح يزيد شرعية البقاء، وتعني حصول سرير العرش على صك الشرعية. تعني بالضبط أن يصافح القاضي يد القاتل في قفص الاتهام - ولا مانع من أن يحتضنه ويقبِّله - ويقول له بصوت جهوري مطمئن كعهد القضاة: «أنت عظيم أيها القاتل وأنا معك بكل قلبي».

كان لِص العرش لا يريد سوى هذه، كلمة تمضي من شفتَي

الحسين ـ اللتين قبَّلهما النبي العظيم صلى الله عليه وسلم ... ثم يمضي، ليس فقط آمنًا مطمئنًّا، ولكن غارقًا أيضًا في العطايا والأ... ال والهدايا والرواتب.

فقط قُلها يا حسين بن علي!

وفقط لم يكن الحسين ليسمح لنفسه الثائرة التقية الورعة المؤمنة أن تقولها. لا يمكنه أن يمنح يزيد ـ وما به من نقص وعلة، وما بعرشه من اغتصاب الحقوق وانتزاع الولاء وشراء الذمم والضمائر وظلم ال... د والجَور على الدنيا والدين معًا ـ لا يمكن أن يمنحه شرف الموافقة ... الحسين هنا، ليس الحسين فقط، بل هو رمز العدل، وبقية النبوة، وض... ة الآخرة، وحكمة الجنة، فالأمر إذن ليزداد صعوبة على يزيد والحـ... ن.

كلاهما لا يستطيع الوقوف أمام التاريخ والطبيعة الإنسانية: يزيد سلطان جائر، يبحث عن شرعية البقاء وصك الاستمرار. والحسين إمام عادل، وفقيه مسلم، وفرع نبوي، ورمز أُخرَوي، يبحث عن العدل، لا شيء سواه ولا سوء معه.

الحسين قُبة الميزان التي أراد لها يزيد أن تسقط، فأبَت. فانتهى الأمر على المحطة الأخيرة إذن يا حسين!

القتل!

الخلاص منه شخصًا وعدلًا ورمزًا وجماهيريًّا.

لذا قالها الحسين عالِمًا عادلًا لمن سأله لِمَ خرج من مكة قبل الحج بيومين، لماذا العجلة؟

أجابه (تَأمَّل):

ـ لو لم أعجل لأُخذت!

في هذا السياق يمكن أن نفهم مقولة الحسين: «إني رأيت رؤيا فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأُمرت فيها بأمر، أنا ماضٍ له، عليَّ كان... أو... لي، ما حدَّثتُ أحدًا بها، وما أنا مُحدِّثٌ حتى ألقى ربي».

مَن يرفضون الحلول الغيبية هنا، والارتكاز على «لا مرئيات» تدفع إلى تحركات على سطح الواقع، عليهم أن يعوا ـ مع تقديرنا ـ أن هذا الرجل هو حفيد النبي صلى الله عليه وسلم، وأنه سيد شباب الجنة. مِن هنا يُلغى التحفُّظ تمامًا، وتبقى للرؤيا دلالتها العظمى الروحانية والصوفية التي تضيف إلى الواقع بُعدًا مهمًّا وهَمًّا مؤكَّدًا.

لم يكن الحسين يبحث عن نصر عسكري لكي يخاف قلة عدد وعُدة جيشه، وضَعف حجمه وقلة ذخيرته، أمام جيوش جرارة وفرسان وسيوف ورماح... وحجارة.

ولم يكن الحسين يبحث عن خلافة تملأ الأرض والسماء، وتهز عروشًا وتفتح أُممًا وبلدانًا، لكي يرجع إلى حيث كان، عندما بلغته أنباء انفضاض الجموع وتخاذل المبايعين وتراجع المؤيدين، فيأخذها من «أقصرها» ويرجع.

ولم يكن الحسين يبحث عن حل سياسي توفيقي تنتهي به المفاوضات إلى أقصى المكاسب النابعة من أقل الخسائر. وإلَّا كان

رَضِي بأن يدخل الكوفة، ويجلس أمام عبيد الله بن زياد، ويصافحه، ويمنحه شرف المكوث أيامًا في قصره، ثم يرحل إلى العاصمة فيما بعد، يحتضنه يزيد، ويزيد من كرمه وسخائه.

لم يكن الحسين يبحث عن هذا كله، وإلا فعل ما يقتضيه ذلك. لكنه كان يبحث عن شيء واحد: الشَّهادة!

لماذا؟

لم يبحث الحسين عن شهادة دخول إلى الجنة أو لتأكيد دخولها، لقد كانت شهادة علينا. شهادة للأمة كلها، وللتاريخ، وللمقاومين بعد مئات السنين، لمواجهة أي يزيد يجيء، بمقاومة الحسين الوحيدة.

حجة علينا!

أن لا يقف أي واحد منا في أي مقام كنا، ويسأل: «ماذا أفعل والقوم كلهم ظُلْم، والعصر كله ظلام، والرفاق انفضُّوا، والأنصار رحلوا؟».

السؤال لا محلَّ له من الإعراب، لأن الحسين أعطى المثل التاريخي، والقدوة الخالدة، والشَّهادة حتى آخر قطرة دم، والوقوف أمام الجَور والظلم حتى النَّفس الأخير.

وهي شهادة على وضِدَّ الزمن!

شهادة يوصم بها يزيد وبنو أمية، وزمن عبيد الله بن زياد، وشمر بن ذي الجوشن، وعمر بن سعد بن أبي وقاص... أنهم قتلوا الحسين، وتَخلَّصوا من العدل والعدالة.

شهادة تقوِّض أركان عرشهم، وتدمِّر قواعد ملكهم، وتزلزل بنيان مستقبلهم.

إن دماءه المُراقة ستتحول إلى «فيروس» النهاية في جسد هذه الدولة. وإن مقتله سيمثِّل طعنة في الغلاف الجوي الذي يحيط برئة الظالمين، ونظريات السُّلطة التي يقفون عندها وعليها!

شهادة الحسين بن علي... ورقة إثبات مختومة بالدم على تلوُّث العصر، وعظمة المقاومة، والارتكاز على الضمير الحي ضد الضمير المشترَى، والاعتماد على قوة القلب ضد رخاوة العقل المحكوم بالواقع والضغوط والاقتصاد والمال والسيف والسلطان.

أخشى أن نسقط في شَرَك البلاغة، التي كان يمكن أن يسقط فيها كثيرون ويكتفوا بها درعًا لمقاومة يزيد وزمنه وابن زياد ودولته، لولا أن خرج الحسين عن كل حدود البلاغة والإنشاء ومقالات صحائف معارضة نارية، وليَسْفَعَن بالناصية، ويُعْطِ شهادة للجميع وعلى الجميع.

«ولم يعتد من كان الحق نيته والتقوى سريرته».

لذا عندما خفق الحسين على فرسه خفقة برأسه ثم انتبه وهو يقول: «إنَّا لله وإنَّا إليه راجِعون والحمد لله رب العالمين». وأخذ يُكررها ثلاثًا، حتى أقبل عليه ابنه علي قائلًا:

ـ يا أبتِ جُعلتُ فِداك! ممَّ حمدت الله واسترجعت؟!

أجابه العزيز الغالي:

ـ يا بُني، إني خفقت برأسي خفقة، فعَنَّ لي فارس على فرس، فقال: القوم يسيرون والمنايا تسري إليهم. فعلمت أنها أنفسنا نُعِيَت إلينا.

فهمس علي بسؤاله غير المستفهِم:

ـ يا أبتِ، لا أراك اللهُ سوءًا، ألسنا على حق؟

أجابه الحسين جوابًا معلومًا للسائل:

ـ بلى والذي إليه مرجع العباد.

فأضاف علي بن الحسين:

ـ إذن لا نبالي، ونموت مُحِقِّين.

إذن لا نبالي!

اقتلوه!

أما بعد، فإني لم أبعثك إلى حسين لتكُفَّ عنه، ولا لتُطاوِلَه، ولا لتُمنِّيه السلامة والبقاء، ولا لتقعد له عندي شافعًا. انظر، فإن نزل حسين وأصحابه على الحكم واستسلموا فابعث بهم إليَّ سلمًا، وإن أبَوا فازحف إليهم حتى تقتلهم وتمثِّل بهم، فإنهم لذلك مستحقُّون، فإن قُتل حسين فأوطئ الخيل صدره وظهره، فإنه عاقٌّ شاقٌّ، قاطع ظَلُوم، وليس «دهري» في هذا أن يُضَرَّ بعد الموت شيئًا، ولكن عليَّ قول لو قد قتلته لفعلت هذا به، وإن أنت مضيت لأمرنا فيه جزيناك جزاء السامع المطيع، وإن أبَيتَ فاعتزل عملنا وجُندنا، وخلِّ بين شمر بن ذي الجوشن وبين العسكر، فإنا قد أمرناه بأمرنا، والسلام.

هذا هو نَصُّ الخطاب الرسمي الذي أرسله عبيد الله بن زياد، والي الكوفة، يحمل قراراته الحربية والعسكرية إلى قائد جيشه في كربلاء عمر بن سعد بن أبي وقاص.

واضحة إذن الأوامر. وتعني ببساطة ـ كل هذه الرسالة البشعة ـ أن اقتلوا الحسين!

إما أن يستسلم، وإما أن يُقتل، ويُمثَّل بأصحابه، وتطأ الخيل صدره وظهره، لا شيء يضرُّه ـ لا سمح الله ـ بعد الموت! ولكن لأن صاحبهم عبيد الله بن زياد قد نذر ذلك حال قتل الحسين. وعصيان الأمر العسكري يعني أيضًا أن يرفع عمر عن كتفيه شارة القيادة ويرحل تاركًا العمل ـ الميداني ـ لشمر بن ذي الجوشن، «فإنا قد أمرناه بأمرنا».

اقتلوه!

هذه هي كلمة السِّرِّ والعلن معًا.

والغريب أن روايات تاريخية ظهرت على سطح المراجع والأُمَّهات الكبرى في كتب التاريخ، تزعم أن الحسين قد عرض على جيش عمر بن سعد ـ في أثناء اللقاءات الليلية بين المعسكرين على الحدود ـ أحد ثلاثة اختيارات يرى فيها عمر أمرًا لينفِّذه الحسين من دون قتال أو إراقة دماء.

زعموا قول الحسين: «اختاروا منِّي خصالًا ثلاثًا: إما أن أرجع إلى المكان الذي أقبلت منه، وإما أن أضع يدى في يد يزيد بن معاوية فيرى ما بيني وبين رأيه، وإما أن تسيِّروني إلى أي ثغر من ثغور المسلمين شئتم، فأكون رجلًا من أهله لي ما لهم وعليَّ ما عليهم».

وأن هذه الاختيارات نُقلت حرفيًّا إلى عبيد الله بن زياد، ولكنه

رفضها، قاطعًا بضرورة مبايعة الحسين ليزيد وحضوره حتى قصر الإمارة في الكوفة. وأرسلَ نَصَّ الخطاب ـ القرار ـ الذي عرضنا له.

وهناك ممن صاحبوا الحسين من مكة حتى مقتله مَن نفوا تلك الرواية تمامًا، مثل عقبة بن سمعان الذي قال: «ولم أفارقه حتى قُتل، وليس من مخاطبة الناس كلمة بالمدينة ولا بمكة ولا في الطريق ولا بالعراق ولا في عسكر إلى يوم قتله إلا وسمعتُها، ألا والله ما أعطاهم ما يتذاكر الناس وما يزعمون من أن يضع يده في يد يزيد بن معاوية، ولا أن يسيِّروه إلى ثغر من ثغور المسلمين، ولكنه قال: دعوني فلأذهب في هذه الأرض العريضة حتى أنظر ما يصير من أمر الناس».

فور ما يموت البطل ـ الرمز ـ فإنه سرعان ما تخرج أحاديث الإفك لتنسب إليه تنازلات وسقطات تشوِّه من الصورة النقية، وتُضعِف من قوة الإيمان، وتُشكِّك في المواقف القاطعة، لمجرَّد أن تشوِّش الفكرة لدى الناس وتذهب بهم مأخذ الردِّ والإيجاب والنفي والجدل. والمنطق يرفض الرواية التي زعمت عَرض الحسين على أعدائه خصالًا ثلاثًا جملةً وتفصيلًا، لِنَفي رفاق «الجهاد الحُسَيني» هذه الواقعة برُمَّتها، ولأن الحسين عندما وقف لحظة القتال في الناس وقال لهم: «ذَرُوني أرجع إلى مأمني في الأرض»، قال جيش عمر بن سعد: «وما يمنعك أن تنزل على حكم بني عمِّك؟»، أجاب الحسين قائلًا: «معاذ الله». ثم تلا قوله تعالى: «إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الحِسَابِ».

إذن المسألة واضحة تمامًا، لقد رفض الحسين أيَّ محاولة للصلح تنتهي بمبايعة يزيد والاستسلام لطغيان دولته، وتكبُّرها واستكبارها على المستضعفين في الأرض.

ثم إن الحسين ما كان ينتظر لتقديم هذا العرض ـ الذي زعموه ـ حتى يقف قبالة أربعة آلاف مقاتل وحده. كان من الممكن أن يرسِل به، إلى ابن زياد أو يزيد، رسولًا على فرس قبل أن يحتدم الصراع ويظهر القتال، خصوصًا وقد جاءته أنباء مقتل مسلم بن عقيل، وانفضاض المبايعين منذ فترة تسمح له بإنهاء الأمر جملة وتفصيلًا، ومن دون بقعة دم واحدة!

أيضًا لو سِرنا ـ جدلًا ـ مع هذه الرواية بتعديلاتها، يمكن أن نتبيَّن ـ وَفقًا للخُطوات السابقة على لقاء الجيشين ـ أن الحسين أراد فقط أن يعطي لابن زياد وجيشه فرصة أخيرة للتراجع عن عبوديتهم ليزيد، مقابل إيمانهم بربهم الجليل. كان يخاطب، ولآخر لحظة ـ وبروح السماح النبوي اللا محدود ـ آخر قطرة دم نظيفة في قلوب هؤلاء، لشيئين: أن يؤكِّد لمن معهم ـ ومعه ـ أن هؤلاء اختاروا الاستمرار بمحض إرادتهم، وبعد أن قدَّم لهم كل نصيحة، وأنه أراد أن يقدِّم لرفاقه وصحبته دليلًا عمليًّا على أن الذي ينتظرهم ـ حتمًا ـ هو الموت والشهادة، فعليهم أن يستعدوا لمواجهته، أو الانصراف سالمين قبل رفع السيوف.

ثم حتى مع الرواية المزعومة، فإن معنى الكلام ـ باطنًا وظاهرًا ـ لا يدلُّ على موافقة الحسين على بيعة يزيد! هذا... وإن الحسين ـ

بعد كل ما ذكرناه ـ كان يُدرك أنها الشهادة، ومن ثَمَّ لا يمكن أن يَنقُصَ نقاءها بتنازلات هو يعلم مسبقًا أنها لن تجدي نفعًا ولا فائدة.

إذن، تجاوُز هذه الرواية يصبح طبيعيًّا ومنطقيًّا، من دون أن يمسك المتربصون بنا، خصوصًا أنها محض افتراء لتبرير استسلام وسلام الذين وضعوا أيديهم في يد يزيد!

لا بقاء لنا بعدك!

الليل مُطلَق العنان في هذه الصحراء التي لم يظهر فيها قمر، ولن يظهر فيها قمر كذلك الذي سطع قبل شهادة الحسين. وربما أرَّخ أبناء كربلاء الذين عاشوا الحد الفاصل بين رمل الصحراء قبل عناق طُهر دماء الحسين، وبعدها. ربما صاروا يؤرخون أيضًا لاختلاف القمرين في المرحلتين!

جلس الحسين مع صحبه وأهله، رجال سيماهم على وجوههم اطمئنان الشهادة، ورزق الفوز، وعشق النبوة، وولاء الرجال، وعناق القلوب، وعناد الحق، وإصرار أولي القوة وأحلام الجنة، وانتظار الموت، والحنين إلى لقاء محمد وصحبه، ومصافحة حور الجنة.

الحسين، قطرات من النور المصفى تحيط بجبهته، وترسم عطرها فوق شفتيه وعلى لحيته، بين لحظة وأخرى، يرقب ابنه الصغير العليل الذي أصابته حُمى أرقدَته في حضن عمَّته السيدة زينب، تلك التي

جزعت ووثبت حزنًا وألَمًا، عندما سمعته يهمس بشِعْر ينعَى فيه نفسه، وثبت تجرُّ ثوبها، وتحسر غطاء رأسها، وتبكي دمًا من قلبها المنزوف:

ـ وا ثكلاه! ليت الموت أعدمني الحياة، اليوم ماتت فاطمة أمي، وعلي أبي، وحسن أخي، يا خليفة الماضي وثُمالة الباقي!

سمعها الحسين فارتج، واقترب منها وعانقها مبللًا بدموع أخٍ كريم وشهيد مقاتل، قد علته غصة في صوت، كما هوت برأسها على صدره:

ـ بأبي أنت وأخي يا أبا عبد الله، نفسي فداك!

وأُغشي على السيدة الجليلة، التي وثقت أن الموت قادم، وأن الحسين، أخاها، وسيد شباب الجنة، ذاهبٌ له، تاركًا لوعة نفسها وحُرقة قلبها عليه، واغتصاب الظالمين حقوق الناس والشهداء..

صبَّ الحسين على وجهها الماء، وقال لها:

ـ يا أختاه، اتقي الله، وتَعَزَّي بعزاء الله، واعلمي أن أهل الأرض يموتون، وأن أهل السماء لا يموتون، وأن كل شيء هالك إلا وجه الله، خلق الأرض بقدرته، ويبعث الخلق فيعودون، وهو فرد وحده، أبي خير مني، وأخي خير مني، ولي ولهم ولكل مسلم برسول الله أسوة.

كان يستعيد ذات المشهد، ويروي تفاصيله لعينيه، وهو ينظر ما لصحبه وأنصاره المقاتلين الشهداء، لما قال:

ـ إني لا أعلم أصحابًا أولى ولا خيرًا من أصحابي، ولا أهل بيتٍ أبرَّ ولا أوصلَ من أهل بيتي، فجزاكم الله عني جميعًا خيرًا، ألا وإني أظن يومنا منِ هؤلاء الأعداء غدًا، ألا وإني قد أذِنتُ فانطلقوا جميعًا في حِلٍّ، ليس عليكم مني زمام، هذا الليل قد غَشِيَكم فاتخذوه جملًا، وليأخذ كل منكم بيد رجل من أهل بيتي ثم اذهبوا في بسيط الأرض في سواد الليل إلى بلادكم ومدائنكم، فإن القوم إنما يريدونني.

وأبى الشهداء إلا الشهادة. وتَجمَّعوا حول الحسين، وتَحلَّقوا حول شهيدهم الأعظم:

ـ لا بقاء لنا بعدك. لا أرانا الله ذلك أبدًا.

فالتفت الحسين إلى إخوة مسلم بن عقيل:

ـ يا بني عقيل، حسبكم من القتل بمسلم. اذهبوا، قد أذِنتُ لكم.

قالوا:

ـ فما يقول الناس؟ يقولون إنا تركنا شيخنا وسيدنا وبني عمومتنا، خير الأعمام، لم نَرمِ معهم بسهم، ولم نطعن معهم برمح، ولم نضرب معهم بسيف رغبة في الحياة الدنيا. لا والله لا نفعل، ولكن نفديك بأنفسنا وأموالنا وأهلينا، ونقاتل حتى نَرِد مَورِدك، فقبَّح اللهُ العيشَ بعدَك.

وانطلق الرفاق:

ـ والله لا نخلِّيك حتى يعلم الله أنا قد حفظنا غيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم فيك. والله لو علمنا أنَّا نُقتل دونك ألف قتلة، وأن الله يدفع بذلك القتل عن نفسك وعن أنفس هؤلاء الفتية من أهل بيتك لأحببنا ذلك، وإنما هي قتلة واحدة.

وكان ليل كربلاء يشهد:

ـ لا أرانا اللهُ يوم فقدك، ولا حاجة لنا في الحياة بعدك، والله لا نفارقك وأنفسنا الفداء لك، نقيك بنحورنا وجباهنا وأيدينا وأبداننا، فإذا نحن قُتلنا وفَّينا وقضينا ما علينا.

وبات الشهداء (٧٢ رجلًا) ليلَهم يصلُّون ويستغفرون ويدعون ويتضرَّعون، وخيول حرس عدوهم تدور من ورائهم، وصوت الحسين قويًّا، نابعًا من الجنة وخندق الشهادة المنير، يتلو قرآن ربه: «ولا يَحسَبنَّ الذِينَ كَفَروا أنَّما نُملي لَهمْ خَيرٌ لأَنفُسِهِم إنَّما نُملِي لَهمْ ليَزدَادُوا إثمًا وَلَهمْ عَذَابٌ مُهِينٌ. مَا كَانَ الله لِيذَرَ المؤمِنينَ عَلَى مَا أَنتُمْ عَليهِ حَتى يَمِيزَ الخَبِيثَ مِنَ الطيِّبِ».

صوت الحسين فوق الحوافر، واصطكاك السيوف، وارتفاع الرماح، وهمهمة الجند، وسكون الرياح، وعواء الذئاب، ورقرقة الماء في فم الظالمين.

صوت الحسين يملأ الليل.

وينتظر إشراق النهار الطالع!

أُوصِيكَ بهذا!

خرج الضوء الأول من النهار.

الحسين فوق حصانه، نظر إلى الكون نظرة مودِّع، والتفت إلى القوم التفاتة القادة لحظة توقُّف التاريخ على التفاتهم.

ورفع يديه بالدعاء:

ـ اللهم أنت ثقتي في كل كرب، ورجائي في كل شِدة، وأنت لي في كل أمر نزل بي ثقة وعِدة، كم من هَمٍّ يضعف فيه الفؤاد وتقل فيه الحيلة ويَخذل فيه الصديق ويشمت فيه العدو، أنزلته بك وشكوته إليك، رغبة مني إليك في مَن سواك، ففرجته وكشفته، فأنت وَليُّ كل نعمة، وصاحب كل حسنة، ومنتهى كل رغبة.

ثم أمر صحبه بإضرام النار في الحطب والخشب والقصب من ورائهم، حتى لا يأتي المهاجمون من خلف.

واشتعلت النار!

ومن كل المداخل إلى قلوب فيها بصيص من أمل، دخل كلام الحسين خطيبًا في الفريق الظالم، يتجوَّل بفرسه، يدور برأسه، يصافح العيون والقلوب والضمائر، يمتلئ صوته دفئًا عميقًا، مستقيمًا نافذًا، يرفع يده إلى السماء، يشير إلى صدره، يربت على فرسه:

ـ أيها الناس، اسمعوا مني نصيحة أقولها لكم. أيها الناس، إن قبلتم مني وأنصفتموني كنتم بذلك أسعد ولم يكن لكم عليَّ سبيل، وإن لم تقبلوا مني «فأَجمِعُوا أمرَكُم وشُرَكاءكُم ثُمَّ لا يَكُن أمرُكُم عَلَيكُم غُمةً ثُمَّ اقْضُوا إليَّ ولَا تُنظِرُونِ». هل يصلح لكم قتال مثلي، وأنا ابن بنت نبيِّكم، وليس على وجه الأرض ابن بنت نبيٍّ غيري، وعليٌّ أبي، وجعفر ذو الجناحين عمِّي، وحمزة سيد الشهداء عمُّ أبي؟ قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم ولأخي: «هذان سيِّدا شباب أهل الجنة». أيُّها الناس، ذَرُوني أرجع إلى مأمني من الأرض.

فقالوا (أخيرًا):

ـ وما يمنعُك أن تنزل على حكم بني عمِّك؟

فقال:

ـ معاذ الله، «إنِّي عُذتُ بِرَبي ورَبكُمْ مِن كُلِّ مُتكبِّرٍ لا يُؤمنُ بيَومِ الحِسَابِ». أخبروني: أتطلبوني بقتيل لكم قتلتُه؟ أو مال لكم أكلتُه؟ أو بقصاص من جراحة؟!

فأخذوا لا يكلِّمونه.

فنادى:

ـ يا شبث بن ربعي، يا حجار بن أبجر، يا... ألم تكتبوا إليَّ أنه قد أينعت الثمار، واخضرَّ الجناب، فأَقْدِم علينا فإنك إنما تُقدِم على جند مجنَّدة؟!

كل المداخل لم تفلح!

كلها أدت إلى الحقيقة المؤكدة: أن الصراع لم يعُد ضد الحسين، ولكنه بات ضد أنفسهم، ضد صوت العقل وهمس الضمير، الذي كان لا بد أن يحطموه ويقتلوه ويمثِّلوا بجسده، الضمير، أقصد الحسين!

وزحف عمر بن سعد، قائد الجيش، الذي أعمته طموحاته الملكية وعشقه لولاية الري في دولة الفرس، فوضع سهمه في كبد قوسه. ثم رمى وقال:

ـ اشهدوا أني أول من رمى.

هذا ابن سعد بن أبي وقاص، أول من رمى في الإسلام بسهم ضد عدوٍّ؟ هذا هو. تخيلوا!

وبدأت المعركة. وإذا برجل يُقال له عبد الله بن حوزة، يقف قبالة الحسين مناديًا:

ـ يا حسين، أبشِر بالنار.

أطرق الحسين مجيبًا:

ـ كلا. إني أُقدِم على ربٍّ رحيم وشفيع مطاع.

ثم التفت:

ـ مَن هذا؟

قال له أصحابه:

ـ هذا ابن حوزة.

قال:

ـ ربِّ حزه إلى النار.

فاشتعل ابن حوزة غضبًا، وهمَّ بإقحام فرسه بينه وبين النهر، فوقع عنه، وتعلَّقت رجله بركاب الفرس، ووقع رأسه في الأرض، ونفر الفرس، فأخذ رأسه يصطدم بكل حجر في الأرض وكل شجرة، حتى مات.

ولم تكن حتى المعجزات قادرة على تغيير دفة المعركة/ الصراع!

خرج برير، رفيق الحسين، وحافظ القرآن، الذي كان يحفِّظه لعدد من رجال جيش القتلة، وبارز يزيد بن معقل. انطلقا بفرسيهما للمبادرة، فخرجت ضربتان في اللحظة نفسها من كليهما. أما برير فقد أصابته ضربة خفيفة لم تضِره، وأما ضربته بسيفه البتَّار فقد اخترقت رأس يزيد، ضربة أفقدته التوازن مع الحياة، فسقط عن الفرس صريعًا هالكًا. فاندفع آخَر من رجال الجيش الظالم، وسقط بجسده فوق برير الذي عاركه مقاتلًا مستبسلًا، وبينما كان على وشك الانتصار الثاني، إذا بكعب الأزدي يغرس رمحًا في

ظهره، غدرًا وخيانة وعجزًا، فقاتل برير والرمح مغروس في ظهره، بيديه وأصابعه، لكن كعب الأزدي عاجله بطعنة قاتلة. فما كان من المقاتل الشرس صاحب الحسين إلا أن نهض على ركبتيه ونفض التراب عن جسده وهو يقول:

ـ أنعمتَ عليَّ يا أخا الأزد، نعمةً لن أنساها أبدًا.

نظر إليه، والتفت ناحية الحسين مبتسمًا مودِّعًا، ثم مضى إلى ربه.

حينها انطلق الحر بن يزيد في وجه الحصين بن تميم، أحد قيادات الجيش الظالم، وتبارزا، وكانت نفس الحر على كفه، لذلك عندما رفع سيفه وهوى به على الأخير، مات من فوره.

هنا، صاح أحد رجال جيش القتلة بالناس:

ـ يا حمقى! أتدرون مَن تقاتلون؟ قومًا مستميتين، لا يبرُزَنَّ لهم منكم أحد، فإنهم قليل وقلَّما يبقون، والله لو لم ترموهم إلا بالحجارة لقتلتموهم.

فقال عمر بن سعد:

ـ صدقت، الرأيُ ما رأيت.

ثم أرسل إلى رجاله:

ـ ألَّا يبارز رجل منكم رجلًا منهم!

ثم أصدر قراره العسكري الثاني، بمد فرسان جيشه بخمسمائة من الرماة، رشقوا خيل اثنين وثلاثين فارسًا من رجال الحسين بالنبل،

فلم تلبث أن عقرت جميعها، وصار جميع أصحاب الحسين فُرادى راجلين فوق الأرض البطحاء التي رُويت بدمائهم الذكية.

وعلى حين كانت الأحصنة تَهدِر بالتراب والغضب، تحمل الألوف ضد أفراد جيش الحسين محدودة العدد والعتاد، والمترجلة على التراب، دنا حبيب بن مظاهر من الذي سبقه في الشهادة مسلم بن عوسجة (قائد ميمنة الحسين) وهمس في أذنه وهو يقف على باب الآخرة، يلفظ أنفاسه الأخيرة:

ـ عَزَّ عليَّ مصرعك يا مسلم، أبشر بالجنة.

فقال مسلم قولًا خافتًا قادمًا من الآخرة:

ـ بشَّرك الله بالخير.

فقال حبيب:

ـ لولا أنني أعلم أنني في أثرك لاحق بك، لأحببت أن توصيني بكل ما أهمَّك حتى أحفظك في كل ذلك، بما أنت أهل له في القرابة والدين.

قال مسلم:

ـ بل أنا أوصيك بهذا رحمك الله!

وأشار بيده التي دنت من الموت إلى الحسين. وهمس همسته الأخيرة:

ـ أوصيك أن تموت دونه.

فبكى حبيب، واحتضن جسد مسلم المسجَّى في دمائه وهتف:

ـ أفعل وربِّ الكعبة.

هبَّ شمر بن ذي الجوشن نحو فسطاط الحسين، بينما اشتعلت النيران في بيوت الشهداء وأحرقوها عن آخرها، حمل شمر على فسطاط الحسين حتى طعنه برمح فكاد يهوي على نسائه وأبنائه وإخوته، فصرخت النسوة ومزَّق صراخهن نياط القلب حين نادى شمر متوحشًا زمومًا:

ـ عليَّ بالنار حتى أحرق هذا البيت على أهله.

فصاح به الحسين:

ـ حرقك الله بالنار.

ساعتها رحل شمر من دون أن يشعل نار حقده في فسطاط الطهر.

وبدأت قائمة الشرف في الاكتمال.

الشهداء يذهبون إلى ربهم، يوصون من يحيا بالذي يحيا بينهم شهيدًا ويُستشهد بينهم حيًّا. يوصونه بالحسين! حتى التفتوا، فإذا هم قِلة يُعَدُّون على أصابع اليد الواحدة، وإنهم باتوا لا يستطيعون أن يمنعوا حُسينًا ولا أنفسهم، فتنافسوا في أن يُقتَلوا بين يديه:

ـ يا أبا عبد الله، عليك السلام، حازنا العدوُّ إليك، فأحببنا أن نُقتل بين يديك، نمنعك وندفع عنك.

ـ مرحبًا بكم. ادنوا مني.

فدنوا منه... أتاه ابنا عمٍّ وأَخَوان لأُم. واقتربا منه وهما يبكيان.

ـ أي ابنَي أخي، ما يُبكيكما؟

ـ جعلنا الله فداك، لا والله ما على أنفسنا نبكي، ولكنا نبكي عليك، نراك قد أُحِيطَ بك ولا نقدر على أن نمنعك.

ثم قاتَلا بين يديه.

اقترب منه حنظلة بن أسعد:

ـ أفلا نروح إلى الآخرة ونلحق بإخواننا؟

فقال الحسين:

ـ رُح إلى خير من الدنيا وما فيها، وإلى مُلك لا يبلى.

فهتف به حنظلة:

ـ السلام عليك يا أبا عبد الله، صلى الله عليك وعلى أهل بيتك، وعرَّف بيننا وبينك في جنته.

قال الحسين:

ـ اللهم آمين.

فقاتل حتى قُتل.

جثا أبو الشعثاء الكندي على ركبته بين يدي الحسين، ورمى بمائة سهم أصابت كلها عدا خمسة فقط. ثم قُتل عليٌّ الأكبر بن الحسين، مضيئًا منطلقًا، رافعًا سيفه على الظلم وفرسانه، والدنيا وزينتها، بين

لحظة وأخرى ينظر إلى أبيه، فيشرب يقينه ويمتص رحيق جهاده، ويعدو على العدو يَقتل ويَصرع، حتى لمحه مرة بن منقذ، أحد فرسان الظلم، فأوجس في نفسه أنه قاتله، ولمَّا هَمَّ علي برفع سيفه على ظالم جديد، استقبله مُرة بطعنة حادة عميقة أوقعت عَليًّا فوق الأرض، فاجتمع حوله حشد من السيوف التي تزاحمت فوق جسد الشاب، وأعملت فعلها الوحشي السافر في الفتى.

اقترب الحسين محتسبًا الأجر عند ربه، ولثم ولده، وبكى دمعه، وهمس بقوله:

- قتل الله قومًا قتلوك يا بُني، ما أجرأهم على الرحمن، وعلى انتهاك حرمة الرسول، على الدنيا بعدك العفاء.

ثم التفت:

- احملوا أخاكم.

اندفع غلام من آل الحسين، عليه إزار وقميص، مذعورًا من صوت السيوف ولون الدماء وعصف الجثث، يتلفت يمينًا وشِمالًا باحثًا عن حضن دافئ ينقذه من بشاعة ما يحدث، فإذا برجل يُقبِل راكضًا بفرسه، حتى إذا دنا منه، مال عليه، وقطعه بالسيف!

وبينما وقف صبي من أبناء الشهيد في حجره، وقد حاول أن يغمض عينيه مبتعدًا عن الدم المسكوب والجرح المفتوح، إذ رماه أحدهم بسهم، فذبحه في حِجر الحسين، فتلقَّى الحسين دمه في كفيه، ثم صبَّ الدم على الأرض. وبيده المغطاة بدماء ابنه تضرَّع إلى ربه:

ـ رب إن تَكُ حبست عنا النصر من السماء، فاجعل ذلك لما هو خير، وانتقم لنا من هؤلاء الظالمين.

مرَّت دقائق القتال عصيبة، ودنت الشهادة حتى أعناق الرجال، وعطش الحسين، واشتد به العطش، فاقترب ليشرب من الماء، فرماه حصين بن تميم بسهم فوقع في فمه فجعل يتلقى الدم من فمه ويرمي به إلى السماء:

ـ اللهم أحصِهم عددًا، واقتلهم بددًا، ولا تَذرْ على الأرض منهم أحدًا.

ودخل الحسين معركته الأخيرة عطشان!

إلى الماء، والشهادة، ولقاء ربه.

وحيدًا الآن!

وحيدًا جدًّا!

الحسين أمام أربعة آلاف مقاتل إلا قليلًا.

وحيدًا في الصحراء والرمال والقتال والعدل والنقاء والبقاء. وحيدًا تمامًا.

النساء يقفن أمام الخيام، ينظرن باكيات مروَّعات مفزوعات إلى هذا المشهد اللا نهائي.

علي بن الحسين، طفله الصغير العليل المريض، ينظر في حضن السيدة زينب، ينظر وهو معروق محموم هذا المشهد الفاجع.

وحيدًا جدًّا!

خيل سقطت، وأخرى وقفت مُجهَدة مُرهَقة، مدلَّاة الآذان والرؤوس، أجساد أُلقِيت، ودماء انتثرت، وأعضاء بُعثرت، وسيوف تَكسَّرت، ورماح تحَطَّمت، وثياب تَمزَّقت، وخيام أُحرقت.

وحيدًا تمامًا!

والكل يعرفه!

وحيدًا جدًّا!

قادمًا من زمن النبوة، صاعدًا إلى ربوة الجنة، تحاصره عيون وسيوف ورماح وخيول، تتشارك وتتقاسم كلها السواد الأكيد.

نادى شمر في الناس:

ـ ويحكم، ماذا تنتظرون بالرجل؟ اقتلوه!

فحمل عليه من كل جانب. وضربه سيفٌ لزرعة بن شريك في كفِّه اليسرى، ثم ضربه على عاتقه.

وانفضُّوا عنه وهو ينوء ويكبو.

وحمل عليه سنان بن أنس النخعي فطعنه بالرمح. فوقع.

جثا على ركبتيه وكتفيه، وصدره.

التفُّوا واستداروا. وعبثت خيولهم بالرمال. واندفعوا. وانهالوا بالسيوف على جسده. ثم هتفوا في خولي بن يزيد:

ـ احتز رأسه.

فأراد أن يفعل، فضعف وارتغد، لكنه لمح بريق سيف وسوط السلطان، فنزل عن فرسه وذبحه، واحتز رأسه.

ثلاث وثلاثون طعنة، وأربع وثلاثون ضربة، في جسد الحسين!

تَقدَّموا فانتزعوا سيفه وثيابه، وسرقوا سراويله.

وبَقِي وحيدًا!

وحيدًا تمامًا!

عاريًا على الأرض المنكوبة!

ثم تَقدَّم القتلة بخيلهم، فداست على عظامه ولحمه، ومرَّت على جسده، وضغطت على أطرافه، وحَطَّمت بدنه، وأصابته بالكسور والرضوض والجروح!

حوافر الخيل فوق صدر الحسين.

خيل زمن يزيد ودولة ابن زياد!

فوق صدر وحلم الحسين!

الجزء الثاني

بحـر الـدم

الشمس والقضبان

جلس المختار يرقب السجن حوله.

كانَ حائط السجن عاليًا، وجدرانه سميكة، وهواؤه غليظًا، وظلامه ثقيلًا، وكانت الأيام تمرُّ فوق صدر المختار، وهو يكظم غيظه ويحبس ثورته ويُهدِّئ روعه ويُمنِّي قلبه بإشراق الأيام المقبلة، وخروج النور من حضن ظلام السجن.

ما كان يحزُّ في نفسه، ويضغط بإثمه صدرَه، ذلك الابتعاد عن الصحراء التي يقاتل فيها الحسين بن علي، هذه القيود والقضبان والأسوار والمسافات التي تفصل جسده وساعديه اللذين يحملان رمحه وسيفه للمقاتلة مع الحسين حربًا ضد يزيد وابن زياد.

التفت المختار وحدَّث نفسه: هذا هو السجن الذي ألقاه فيه عبيد الله بن زياد في قصر الكوفة المشيَّد على قبور الحرية والأمن، يوم خرج من قريته البعيدة إلى الكوفة لنصرة مسلم بن عقيل، والوقوف إلى جانبه، ومحاصرة قصر الكوفة، وإسقاط الأمير.

يومها جاءه الخبر أن مُسلمًا قد خرج. ولأن الموعد كان مفاجأة واللحظة مبكرة عما اعتقدوا واحتسبوا، فقد هرول بعشيرته نحو الكوفة حتى يلحق بابن عقيل. وهناك على الحدود استقبلوه بالخبر: «لقد قُتل مسلم بن عقيل». ومن هناك أيضًا ألقى الوشاة إلى عبيد الله بنبأ مناصرته لمسلم وعزمه القتال مع الحسين.

تَحسَّس المختار عينه المصابة، ولمس جفنه المقلوب، وجُرح عينه المتشنج، وتذكَّر عندما قادوه إلى قصر عبيد الله.

وقف أمامه، معتدًّا بموقفه، محاولًا المقاومة بالكلمة، بعد أن أسقطوا السيف عنه، وأعلنه عبيد الله بن زياد أنه لولا شهادة وشفاعة البعض لكان قد ألقى بعنقه من فوق القصر. ثم غرس قضيبًا في عينه فأصابها. وببشاعة تقطر حقدًا، أمر بالزَّج به إلى السجن العميق.

هنا محتجَزًا من دون لقاء الحسين!

محبوسًا عن نصرته والدفاع عنه!

ولم يكن المختار يدرك أنه لحظة ما تشاجرت هذه الأفكار والذكريات في رأسه، كان خولي بن يزيد يحمل رأس الحسين المذبوح ملفوفًا في أحد الأجولة، قادمًا إلى قصر الكوفة ليُقدِّمه إلى الأمير هدية النصر، وعلامة الفوز، وقطع دابر الحسين وثورته. فلما وجد الحُراس قد أغلقوا الأبواب وران الصمت على الجدران، آثر العودة إلى بيته حتى يطلع للغد صباح.

لم يكن المختار يعرف لحظةَ سَدَّت الظُّلمةُ عن عينيه نصف الضائعتين رؤية وحشية السجن وحديد القيود، أن خولي دخل على

زوجته فرحًا سعيدًا، فأغلق الباب، ودنا منها وهو يختلس النظرات إلى شعرها المحلول. وقال لها:

- جئتك بغِنَى الدهر، هذا رأس الحسين معكِ في الدار.

وفزعت الزوجة، وفرَّت من وزجها. ولم يجد الزوج بُدًّا أمامه من وضع رأس الحسين (رضي الله عنه) تحت السرير!

ولحظة ما استدارت الشمس وأكملت دورتها في السماء، فألقت في زنزانة المختار لونًا من الضوء الخافت، كانت السيدة زينب تمرُّ مع أهل بيت النبي وهم أسرى مقيَّدون مخذولون يقودهم الحرس ويدفعهم الرجال.

كانت تمر على صحراء كربلاء في طابور الأسرى، فرأت رمالها غارقة في دماء الشهداء، والأجساد قد تَفرَّقت وتبعثرت، والجثث ملقاة في العراء، وحبيبها وأخاها وسيدها وإمامها الحسين بن عليٍّ جسدًا مُثخنًا بالجراح والطعنات، مفصول الرأس عن الجسد، عاري الجسم والبدن، وحدَه في رمال الموت التي تُبعثرها الرياح ودماء الشهادة التي اختلطت بندى الصُّبح.

كانت السيدة زينب تصرخ:

- يا محمداه! يا محمداه! صلى عليك الله وملائكة السماء، هذا الحسين بالعَراء، مُرمَّلٌ بالدماء، ومُقطَّع الأعضاء، وبناتك سبايا، وذريتك مُقتَّلة، تسفي[1] عليها الصَّبا[2].

---

(١) تذر وترمي.

(٢) ريح في شمال شبه الجزيرة.

تَسرَّب الخبر إلى زنازين القصر. وتبادله الحرس والجنود والمعتقلون. تجاوز القضبان والأبوابَ والأسوار والجدران. ولما خرق الخبر أذن المختار أن الحسين قد قُتل، كانت أولى كلماته: «والله لأقتلنَّ كلَّ مَن قتله!». وقذف بقيوده الحديدية إلى الهواء.

لأقتُلَنَّهم!

لم يكن أحد ليعرف أنه عندما صرخ السجين الغارق في قيوده وظلام المعتقل الرهيب، وهو يُقسِم بأنه سيقتل كل قتلة الحسين، كل مَن رفع رمحًا وسيفًا وكلمة ضد الحسين بن علي، الإمام، الزعيم، وابن بنت النبي، سيد المسلمين وابن سيدهم. لم يكن أحد ليعرف أو ليُصدِّق أن هذه الصرخة يمكن أن تتحول إلى جيوش جرَّارة، وأن حلم هذا السجين سيتحول إلى حقيقة تطارد القتلة، وتأتي بهم من بروجهم المشيَّدة وقلاعهم المحصَّنة.

كانت قبضة المختار تضرب في الحائط الأصم، وتدرك أنه سيتحطم وينطق ويفجر الدنيا... غضبًا!

بين أربعة آلاف شهيد سقطوا على أحد الجسور على نهر دجلة في الأرض الواسعة التي حكمها الفرس في العام الثالث عشر من الهجرة، عندما ذهب إليها جيش المسلمين فاتحًا في عصر عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)، كان أبو عبيد بن مسعود الثقفي قائدًا للجيش، وأصابه

هناك سبق الشهادة. وتكريمًا لبطولته وقيادته أطلقوا على هذا الجسر اسمه: «جسر أبي عبيد».

أبو عبيد الثقفي، هو والد المختار سجين قصر الكوفة، الذي تعيش أخته صفية بنت أبي عبيد، الصالحة العابدة، في مكة المكرمة إلى جانب الحرم الشريف وزوجها الشريف الفقيه عبد الله بن عمر بن الخطاب.

أرسل المختار عبر هذه الأراضي الشاسعة خطابًا إلى زوج أخته يرجوه فيه التدخل بالوساطة لدى يزيد بن معاوية، لكي يُفرِج عنه ويُطلِق سراح سجنه الطويل، خصوصًا أن دماء الحسين قد أُريقت، والعرش قد استوى ليزيد وملكه.

وصلت الرسالة إلى عبد الله بن عمر الذي حرَّكته أواصر القربى ومشاعر الإخلاص، فأرسل بدوره إلى يزيد بن معاوية خطابًا لتَخْلية سبيل المختار.

وقد كان.

لكنَّ عبيد الله بن زياد كان يتمنى أن يطول حبسه وينتهي أجله بين جدران السجن العالية، لذلك اشترط على المختار أن لا يراه بعد ثلاثة أيام في الكوفة وإلا بَرِئَت منه الذمة. ولم تكد الأيام الثلاثة تنتهي حتى كان المختار في طريقه إلى الحجاز، حيث كانت أنباء تمرُّد عبد الله بن الزبير في مكة قد وصلت إليه، فذهب المختار وهو يعِدُ نفسه بنيل المراد وبلوغ المرام.

ـ ما أقوله لك فاحفظه عنِّي حتى ترى مصداقه.

هكذا أكد المختار لصاحب له في الطريق إلى الحجاز، لما سأله عما أصاب عينه، فأخبره أنه عبيد الله بن زياد، وقال:

- قتلني الله إن لم أقطع أنامله وأعضاءه إرْبًا إرْبًا.

فلما تعجَّب صاحبه من مقولته، نصحه المختار أن يحفظ عنه حتى يرى بنفسه مصداقية كلامه ووعوده. ثم طلب منه أن يبلِّغ كل من يلقاه أن المختار في عصائبه من المسلمين، يطلب دم المظلوم الشهيد المقتول سيد المسلمين وابن سيدهم الحسين بن علي.

- فوَربِّك لأقتُلنَّ بقتله عِدة القتلى التي قُتِلَت على دم يحيى بن زكريا عليه السلام.

ويُحدِّث الصاحب نفسه من غرابة ما يسمع من المختار: «هذا الذي يذكره مما يزعم أنه كائن، أشيء حدَّث به نفسه؟ والله ما أطلَعَ اللهُ على الغيب أحدًا، وإنما هو شيء يتمناه فيرى أنه كائن».

وينهي الصاحب محاورته الذاتية بحكمة منطقية نحفظها الآن في كتبنا: «فوالله ما كل ما يرى الإنسان أنه كائن يكون».

لكن الإضافة المهمة والخطيرة في هذه الرواية أن الرجل لما عاش الأيام والسنوات التي تلت هذه الواقعة قال: «والله ما متُّ حتى رأيت كل ما قاله».

لقد تحققت نبوءة المختار تفصيليًّا، وجعل من حوله يسأل نفسه: «أهو عِلمٌ أُوتِي للمختار، أم أملٌ حوَّله الله إلى حقيقة؟!».

تحفل حياة المختار بكثير من قصص التنبؤ ورؤية الغيب، لكننا نعتقد أن الرجل كان صاحب عزيمة جبارة وقدرة خارقة على المثابرة والسعي لما يريده. كما كان شديد الاعتداد بنفسه وعارفًا لمقدارها، فيوم جلس مع عبد الله بن الزبير في الكعبة، وهم يستعدُّون لحركة انفصالية استقلالية عن يزيد بن معاوية والدولة الأُموية، طرح المختار مبايعة مشروطة للزبير.

قال المختار:

- إني قد جئتك لأبايعك على أن لا تقضي الأمور دوني، وعليَّ أن أكون في أول مَن تأذن له، وإذا ظهرتَ استعنتَ بي على أفضل عملك.

المختار يطلب بوضوح أن يكون الرجل الثاني وأمير هذه الثورة.

وأمام هذه الكبرياء المزعجة، واستعراض القوة المبالغ فيه، لم يجد ابن الزبير إلا القول:

- أبايعك على كتاب الله وسُنة نبيه صلى الله عليه وسلم.

فردَّ عليه المختار:

- وشر غلماني أنت مبايعه على كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم. ما لي في هذا الأمر من الحظ ما ليس لأقصى الخلق منك. لا والله لا أبايعك أبدًا إلا على هذه الخصال.

ولم يجد ابن الزبير إلا أن يبايعه على شروطه ويجعله قائده وذراعه اليمنى القوية.

الاعتداد بالنفس، والطموح الواسع، والإدراك الكبير لما يحدث حوله، وموازين القوى السائدة، كانت من أهم صفات المختار، إلى جانب القوة والشجاعة النادرة الفائقة.

لهذا خاض المختار حربًا ضروسًا مع ابن الزبير في مكة من أجل مقاومة حجم يزيد وتنصيبَ عبد الله بن الزبير أميرًا للمؤمنين. حتى جاء خبر موت يزيد بن معاوية وخلو العرش من ملكه، وكان ذلك في ربيع الأول من عام ٦٤ هجريًا، وتولى ابنه معاوية الحكم لأربعين يومًا ثم مات.

وأصبح شارع الإمارة مفتوحًا أمام ابن الزبير، واستغل فترة الحكم الانتقالي في عرش الأمويين، وأعلن نفسه أميرًا على مكة، وبدأت المبايعة تأتيه من جوانب شتى في الحجاز حتى من الكوفة.

وأصبح عبد الله بن الزبير أميرًا للمؤمنين على العراق والحجاز.

خمسة أشهر فقط، مكث خلالها المختار بجوار عبد الله بن الزبير، لا يترك فيها فرصة لكي يلتقط أيَّ قادم من العراق أنفاسه قبل أن يسأله الأحوال هناك. وما لبث أن اغتسل، ودهن جسده دهنًا يسيرًا، ولبس ثيابه، واعتمَّ بعمامته، وتقلَّد سيفه، وركب راحلته ومضى إلى العراق.

وحده فقط! معه الفرس والزَّاد والسيف... حتى دخل الكوفة.

لم يرَ المختار في الكوفة أي جالس أمام داره، أو فوق سطحه، عابرًا الطريق، سائرًا فوق دابة، متحلقًا أمام مسجد... إلَّا حيَّاه:

ـ أبشر بالنصر واليسر والفلج(١).

---

(١) الفوز والنصر.

وخرج إليه الناس يسألونه، ويستفهمون منه، ويحكون له. لكنه لم يحادثهم، بل طلب أن يجتمعوا به الليلة في داره. وفي الليل جاءت الجموع وتَحلَّقت حوله، وبصوت واثق حازم حاسم هادئ ساخن قال:

ـ أما بعد، فإن المهدي[1] ابن الوصي[2] محمد بن علي بن أبي طالب...

---

(١) يقصد بالمهدي محمد بن علي شقيق الحسين من والده.

(٢) يقصد بالوصي علي بن أبي طالب.

يزيد والقِردة

جلس يزيد بن معاوية على مقعده الوثير يتقلَّب في ريش النعام، وترفرف عليه الرياش، ويزدحم حوله الحرس، وتبدو أمامه موائد الطعام المزدحمة، وغلمان القصر الملاح أنصاف العرايا. يصل إلى سمعه غناء الطيور فوق أغصان حدائق القصر، مختلطًا بحفيف ثياب الجواري يسبَحن في ردهات القصر خلف ستائر الحريم.

جلس على مقعده، واضعًا على حجره قردة، حيث كان من هواة جمع وتربية القرود، وجعل يداعبها ويدعوها إلى أداء الرقصات والألعاب الدمشقية الشهيرة، ومدربها الطيِّع اللزج يقف بجواره مبتسمًا فخورًا بقدرته على تحريك الحيوانات وتدريب القرود وإرضاء الأمير. وبينما يضع يزيد يده في فمها مداعبًا، غضبت القردة وهاجت وتوحَّشت وافترست واحتوت جسده بأرجلها، وغرست فيه أسنانها البشعة، وعضَّته.

وعندما كان المدرِّب والحراس يحاولون إنقاذه من سعارها،

وعندما كان يزيد يدفعها بيدين يائستين مذهولتين، كان الموت قد سرى في جسده، وأعلن عن آخر لحظات حياته.

قيل إن هذا سبب موت يزيد بن معاوية بعد ثلاثة أعوام من إراقة دم الحسين وذبحه في كربلاء!

علَّق عبيد الله بن زياد رأس الحسين على خشبة (كان رأس الحسين هو أول رأس رُفع على خشبة في الإسلام!)، وأخذت شُرطته تدور به في أنحاء الكوفة: دروبها وشوارعها وصحرائها ومزاعيها ومساجدها وقصورها وخيامها. ثم شُحِنَ إلى يزيد بن معاوية في دمشق.

دخل رأس الحسين. عبَر ردهات القصر. صَعِدَ سُلَّمه. مرَّ بأيدي خَدَمه. ارتفع إلى شرفاته. دار في ساحته. دخل إلى سرير العرش.

يزيد جالس على العرش وحوله الأشراف (دائمًا الأشراف!)، ووُضِع الرأس بين يديه. وفي لزاجة لا حدَّ لها قال يزيد:

ـ أما والله يا حسين، لو أنا صاحبك ما قتلتُك.

وهي جملة يعتقد البعض أنها تُبرِّئ يزيد من دم الحسين، وترى فيه صاحب رَحِم وغيرَ راضٍ عن المجزرة في كربلاء، وأنه لم يكُن يتمنى قطُّ لأبناء العمومة أن يُقتَلوا ويلقوا هذا المصير. ومن ثَمَّ، فصاحب الإثم هو عبيد الله بن زياد! أما يزيد فلم يكن ليقتله!

لكنَّ التاريخ ـ وحده ـ يجزم أن هذه الجملة جاءت من خلف

قلبه، وبنفاق بالغ التردِّي. حاول أن يُخفي فيها غِلَّه ونقمته وتشفِّيه في الحسين.

التاريخ - وحده - يثبت أن يزيد حاول أن يدَّعي البراءة أمام الأشراف، ويخلي سبيل ذنبه أمام رجال قصره، وقبل ذلك أمام نفسه!

لكنه لم يستطع أن يخفي حقيقته أمام علي بن الحسين، الصبي الذي أنقذه القدر من الموت بالمصادفة، إذ كان مريضًا في أثناء المذبحة. ولأنه لم يبلغ الحُلُم فقد تكرَّم ابن زياد بعدم ذبحه بعد المعركة، إذ تشبَّثت به السيدة زينب، واحتضنته وقاتلت من أجله، والتصقت وانصهرت ببدنها في بدنه، لما حاول الحرس أن ينتزعوه منها ليقتلوه. عندها آثر ابن زياد أن يتركه، فقد كان كوب الدم قد امتلأ إلى حافَّته، ولم يعُد يسمح بقطرة دم جديدة.

دخل علي بن الحسين، على يزيد، فناداه الأخير بمجرد رؤيته:

- يا علي، أبوك الذي قطع رحمي، وجهِلَ حقي، ونازعني سلطاني، فصنع الله به ما قد رأيت.

أجابه علي:

- ما أَصَابَ مِن مُصِيبةٍ في الأرضِ ولَا في أَنفُسِكُم إلَّا في كِتَابٍ مِنْ قَبلِ أن نَبرَأَها.

فقال يزيد:

- وما أَصَابَكُم مِن مُصِيبةٍ فبِما كَسبَتْ أَيدِيكُم ويَعفُو عَن كَثيرٍ.

هكذا كان يزيد متصورًا لخروج الحسين، وهكذا كان مؤمنًا تمامًا أن أي عاصٍ ـ ولو كان الحسين ـ لا بد أن يقاوَم ويُقتَل ويُذبَح، وأن عرشه وولايته لا يسمحان أبدًا بالتفريط مع المغرضين والقلة المنحرفة وأصحاب الدعوات الهدَّامة التي يمكن أن تغرس فأسها في رأس دولته.

لقد كان يزيد راضيًا بشكل مُطلق عما فعله عبيد الله بن زياد وقتله للحسين. فقد خلع يزيد الوالي النعمان بن بشير عن الكوفة، لأنه لم يستطع مقاومة تيار الحسين ورجاله، وكان مطلوبًا أن يأتي رجل من حديد ونار يواجه الإرهاب بالإرهاب. كما أن أوامر يزيد ـ منذ البداية ـ كانت واضحة تمامًا لابن زياد: عليه أن يتخلَّص من هذه الثورة، ويطيح برجالها بأي الوسائل الممكنة، وإن لم يطلب منه صراحةً أن يقتل ويسفك دم الحسين، إلا أن أوامره كلها تقود إلى ذلك حتمًا.

أيضًا، فإن يزيد حتى لم يكن يملك حنكة سياسية تدفعه إلى عزل ابن زياد بمجرد أدائه الرفيع لمهمته المطلوبة، فبعد قتل الحسين أصبح ابن زياد ورقة محروقة يمكن التخلُّص منها، ليُظهِر أنه غير راضٍ عن أسلوب معالجة الموقف، لكي يُهدِّئ روع أنصار الحسين وشيعته ويمتص غضبهم. لكنه حتى لم يكُن يملك هذا الوعي الذي يملكه أنصاف الحكام والأمراء في وقتنا الحالي.

بل على العكس، لقد أفرط يزيد ـ بغبائه الذي فضحه ـ في تكريم ابن زياد ومنحه الأوسمة والنياشين ـ التي تليق بعصره ـ وأعطاه ولاية

الكوفة والبصرة معًا، بل وطلب منه بعد ذلك أن يؤدِّي المهمة نفسها مع أهل المدينة المنورة عندما حاولوا الخروج على حكم يزيد.

يزيد بن معاوية قاتل الحسين بن علي! هكذا، بلا مواربة، ولا محاولة لتزيين موقفه. ولم تكن هذه هي المصيبة الوحيدة في حياة يزيد!

- إنا قدِمنا من عند رجل ليس له دين، يشرب الخمر، ويعزف بالطنابير[1]، ويضرب عنده القيان[2]، ويلعب بالكلاب، ويسامر الحرَّاب والفتيان. وإنا نُشهِدكم أنَّا قد خلعناه.

هكذا أخبر وفد المدينة الذي قَدِمَ على يزيد في عرشه بعد عام من مقتل الحسين، والتقاهم يزيد في محاولة واضحة لشراء رضاء عِلية القوم بالمدينة، بعد أن تذمَّروا من تولية فتى غرير[3]، ليس له في الملك شأن وفي الإمارة شأو، وتوليته أميرًا على المدينة بأشرافها وأفاضلها وصحابة نبيِّها.

فاستقبل يزيد وفد المدينة، لكي يسترضيهم ويشتريهم - هكذا بوضوح - فأكرمهم وأحسن إليهم وأعظم جوائزهم، بل ومنح عددًا منهم مائة ألف درهم لكل واحد. لكنهم لما عادوا إلى المدينة لم يكتموا الشهادة وأعلنوها. حتى الذين منحوا منحة المائة ألف درهم:

---

(١) آلات موسيقية ذات عنق وأوتار.

(٢) الإماء والجواري.

(٣) بلا خبرة وبلا حكمة. وهو عثمان بن محمد بن أبي سفيان.

- إنه لا يمنعني ما صنع إليَّ، أن أخبركم خبره، وأصْدُقكم عنه. واللهِ إنه لَيشرب الخمر، وإنه لَيسكر حتى يدع الصلاة.

وبلغ تذمُّر المدينة حدًّا عاليًا، مما جعلها تعلن عصيانها، وتخلع عن يزيد بيعتها له.

ولم يصبر يزيد على أن تظهر أزمة جديدة تهدِّد سرير العرش، فأرسل إلى عبيد الله بن زياد (ابن مرجانة) أن يغزو المدينة (مرة أخرى)، فقال ابن زياد:

- والله لا أجمعهما للفاسق أبدًا، أقتل ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأغزو البيت؟!

ولم يُغلَب يزيد في إيجاد الشخص المناسب: مسلم بن عقبة.

وصفَّ جيشه، وأكمل عُدَّته، وحشد فرسه وفرسانه، وأملاه القرار العسكري:

- ادعُ القوم ثلاثًا، فإن هم أجابوك وإلا فقاتلهم، فإذا أظهرت عليهم فأَبِحْها ثلاثًا، فما فيها من مال أو رقة[1] أو دابة أو سلاح أو طعام فهو للجند، فإذا مضت الثلاث فاكْفُف عن الناس.

وكانت مذبحة بكل المقاييس، جرت فيها الدماء أنهارًا!

دماءُ مَن؟ وأين؟

دماء صحابة وذريتهم والتابعين لهم!

---

(١) دراهم.

وفي المدينة المنورة، بجوار مسجد الرسول، وفي مكان عبرت فيه أنفاسه، والتفت فيه رأسه الكريم، ونزل عليه جبريل، وارتفعت فيه سيوف الحقِّ ضد أباطيل الكفر.

نهر من الدم في ثلاثة أيام.

بقروا فيها البطون، واعتدوا على النساء، وداسوا في البيوت، وحطَّموا الأبواب، وقتلوا الشيخ والصبي والفتاة، وجعلوا عاليها سافلها.

حتى إن الإحصاءات تقول إن عدد من قُتل في الأيام الدامية الثلاثة كان سبعمائة قتيل. وتضيف أيضًا أن ألف امرأة حبلت سفاحًا في الأيام الثلاثة، نتيجة هتك الأعراض واغتصاب النساء!

ثم يقولون إنه بريء من دم الحسين!!

لقد انتهك حرمة المدينة، وهو ما كان الحسين يدركه منذ ثلاث سنوات، كان يعلم أنهم سيصلون إليه، أكان في المدينة أم في مكة.

«لو لم أُعجِّل، لأُخِذْتُ».

ويؤكِّد نهر الدم الذي جرى في المدينة، أن يزيد لم يكن يعنيه إلا العرش. ويؤكِّد سبق الإصرار والترصُّد، الذي جعل سيفه ينتظر الحسين على مدخل العراق، ليُريقَ دمه ويطيح برأسه ويثبِّت عرشه.

جعله أيضًا ديكتاتورًا محترفًا تصفويًا، وبنفس الإصرار والترصُّد ـ

والتعمُّد والتخطيط ـ ليرسل جزَّارًا آخر إلى المدينة، ليُريقَ دم الصحابة، ويطيح برؤوس ذريتهم، ويثبِّت عرشه.

يستوي في ذلك دم الحسين، ودم ذرية الأنصار والمهاجرين. تستوي في ذلك رمال صحراوية صفراء في أرض مفتوحة، وبساط أخضر داست عليه يومًا أقدام الرسول والصحابة في المدينة المنورة.

يستوي العرش، وعبده.

حُرَّاسه ووزراؤه وسفَّاحوه. سواء كانوا من صنف عبيد الله بن زياد أو مسلم بن عقبة. إنهم مجرَّد دُمًى دموية لإنفاذ أمر الديكتاتور الجالس في دمشق.

كل شيء يقود يزيد إلى الصعود إلى الهاوية، إلى أعلى الهاوية!

حاكم فردي، لا يشاركه الحكم مستشار ولا وزير. لا يجتمع حوله أهل الفضل والخير والرجحان، بل لقد أبعد بعضهم، ورشا آخرين، قبل كثيرين.

بالإضافة إلى أن البيت الأُموي لم يكن عامرًا بخُلَصاء أو عُقلاء أو رجالات دولة وسلطان، لذلك تركوا يزيد يسير نحو الهاوية بانتظام وتعجُّل يُحسَد عليه!

ومن دون أن ينبهه أحد وهو مشغول في أزمة الجارية سلامة التي اشتراها، ثم اكتشف وقوعها في حُب أحد الرجال في المدينة، مما جعله يجلس ساعات طويلة يستمع إلى حوارها وغزلها (العفيف)، من وراء ستار. لم يُنبِّهُ أحد وهو مشغول في حل هذه المشكلة،

والعطف على الجارية وحبيبها وإعادتهما إلى العش الهادئ. ولم يلفت نظره أحد إلى أن الله يرى والتاريخ يكتب، لكي يفيق.

وقد امتلك يزيد أدوات طغيان عزَّ لِمَلِك أن يجد مثلها: فلقد وجد في عبيد الله بن زياد ضالَّته المنشودة لذبح الحسين وثورته من دون قلق أو توتر! وعثر في مسلم بن عقبة على الكنز المفقود الذي استباح لنفسه قتل أهل المدينة وسلب أموالهم واغتصاب نسائهم وهدم دورهم!

كذا فإن يزيد استند إلى سلطان الفقه الحكومي، ووجد عند أنصاف الفقهاء فتوى لكل ما يفعل، ودفاعًا وتبريرًا لما يقول، حتى بلغ ولاؤهم له حدَّ دسِّ الروايات المؤيِّدة له والمدافعة عنه في أوراق التاريخ، لعلها تُصلِح من صورته الدميمة!

لقد كان يزيد بالفعل واحدًا من الحُكام الذين أعمتهم الجهالة وأغرقتهم الشهوات، فطال النساء والغلمان والخمر والقِرَدة والصيد والشهوة والنهمة، وأعطى نموذجًا قديمًا جديدًا لهؤلاء الذين يبيتون لياليهم في الملاهي الليلة الخاصة بهم، ويعيشون أوقاتهم على صدور النساء وظهور الغلمان!

لا يعرف الديمقراطية ولا الحرية. لا يعرف شعبًا ولا وطنًا. يعرف عرشه!

يزيد الحاكم الذي رُوي عنه أنه كان يشتهر بالمعازف وشرب الخمر والغناء والصيد، واتخاذ الغلمان والقيان والكلاب، والنطاح

بين الكباش والدببة والقرود، وما من يوم إلا يصبح منه مخمورًا. وكان يشد القرد على فرس مسرجة بحبال ويسوق به، ويُلبِس القرد قَلانس الذهب، وكذلك الغلمان. وكان يسابق الخيل. وكان إذا مات القرد حزن عليه!

هذا الذي قتل الحسين بن علي!

قتله قرد!

يا منصورُ أَمِتْ!

مرة أخرى. عاد المختار إلى السجن بظلامه العميق، الجدران العالية، القيود الثقيلة، عيون الحرس، رماح الجنود، انتظار بزوغ الشمس لحلول لون النهار الضعيف في جُب القصر الجهم.

مرة أخرى. في السجن. سجن عبد الله بن الزبير، كما كان سجن ابن معاوية. نفس السجن والقضبان والأحجار، وإن اختلفت رؤوس الحكام وأسماؤهم.

وكانت السيوف بعيدة عن يديه أيضًا في سجنه. وما كان من الشيعة إلا أن ثاروا، وحاولوا الأخذ بدم الحسين، وخرجوا لملاقاة جيش عبيد الله بن زياد القادم لغزو الكوفة والبصرة، وإعادة ضمهما إلى ملك مروان بن الحكم (بعد وفاة معاوية بن يزيد انتقلت الإمارة إلى بيت مروان بن الحكم، وصار أميرًا للمؤمنين على الشام، بينما ظل الزبير على العراق والحجاز). لكن الشيعة ـ بقيادة سليمان بن صرد ـ لقيت هزيمة قاسية تمامًا.

ووصلت الأنباء إلى المختار في سجنه، فأرسل خطابًا ناريًّا إلى أكبر رؤوس الشيعة في الكوفة، يؤكد لهم أنه - المختار - وحده القادر على الانتقام من قَتلة الحسين والثأر لدمائه الشريفة:

> إني أنا المأمور، الأمين المأمون، أمير الجيش، وقاتل الجبَّارين، والمنتقم من أعداء الدين، والمقيد من الأوتار. فأعِدُّوا واستعِدُّوا، وأبشروا واستبشروا، أدعوكم إلى كتاب الله وسُنة نبيِّه صلى الله عليه وسلم، وإلى الطلب بدماء أهل البيت، والدفع عن الضعفاء، وجهاد المُحلين. والسلام.

وجاءه الرد: إجماع من الشيعة عليه. وانتظارهم له.

ومرة أخرى - أيضًا - يبعث المختار بخطاب إلى صهره الفقيه الورع، عبد الله بن عمر، ويرجو منه التوسُّط لدى ابن الزبير للإفراج عنه.

ويخرج المختار من السجن. ولكن هذه المرة أقسم ألَّا يعود، وأن يحكم هذا القصر، وأن يضع في نفس السجن أعداءه ومناهضيه!

أعداءه وحدهم!

كان أولَ من استقبل المختار بعد خروجه الثاني من السجن، واليا الكوفة، عبد الله بن يزيد، وإبراهيم بن محمد بن طلحة، وحلَّفاه بالله الذي لا إله إلا هو لا يبغيهما غائلة، ولا يخرج عليهما ما كان لهما من سلطان، فإن هو فعل، فعليه دية ألف بَدَنة ينحرها لدى رتاج الكعبة، ومماليكه كلهم، ذكرهم وأنثاهم أحرار.

وكان أمام المختار أحد الأمرين: أن يرفض القسم، لأنه يعلم

يقينًا أنه خارج للانتقام من قَتلة الحسين، وأنه لن يفعل ذلك من دون إجماع البيعة عليه، وخروجه عن الحُكم الحالي واستيلائه على مقعد الإمارة في قصر الكوفة. أو أن يحلف ويقسم!

فحلف.

- فإنه ينبغي لي إذا حلفت على يمين، فرأيت ما هو خير منها، أن أدع ما حلفت عليه، وآتي الذي هو خير!

كان يعني وصول المختار إلى داره في الكوفة، عودة الأمل إلى الشيعة في وجود نصير لها، وقائد عليها، وصاحب دعوة للانتقام من قَتلة الحسين جريئة وقوية وصريحة وباترة. وكانوا يدركون أن محاولة خمسة منهم الحصول على المبايعة له في أثناء سجنه لن تكون بقوة المبايعة ولا حجم المبايعين حال خروجه من السجن ووجوده بين الناس.

وبالفعل بدأ أمره يقوى، وساعده يشتد، وأنصاره يكثرون، وأصحابه يتكاثرون، ودعوته تنتشر، وإمرته تُعلَن، حتى وصلت الأنباء إلى عبد الله بن الزبير، فأصدر أمرًا عاجلًا بعزل ولاة الكوفة، وتعيين عبد الله بن مطيع واليًا عليها. لكن حضور عبد الله بن مطيع لم يجعل شيئًا يختلف، بل سارت الأمور في تصاعد مستمر من مبايعة المختار وانتشار دعوته وأصحابه، إلى الحد الذي نجح معه المختار في اختراق جهاز الأمن لدى ابن مطيع، حتى إن حراسه الذين ذهبوا لاستدعاء المختار وإرغامه على الذهاب إلى القصر (حيث تدبَّر له مكيدة هناك لسَجْنه لثالث مرة) حذَّروا المختار وأنقذوه، وذهبوا إلى أميرهم يخبرونه بمرضه واعتذاره!

ولم يعُد هناك إلا إصدار القرار بالخروج على الحكم، وإعلان الانقلاب الصارخ ضد حكم ابن الزبير، ثم التفرغ للانتقام.

وربما «حسبها» المختار هكذا بينه وبين نفسه:

- الاستيلاء على حكومة الكوفة بعد صراع أهليٍّ بها.
- امتداد نفوذه إلى البصرة وبعض البلدان المحيطة.
- ملاقاة جيش الأمويين بقيادة عبيد الله بن زياد وقتله.
- التفرغ لقتل قَتلة الحسين.

وربما لم تأتِ الخطط بنفس هذا الترتيب، لكنها أدَّت إلى نفس النتائج.

من ناحية أخرى، خالطت قلوبَ بعض أنصار المختار الشكوكُ في حقيقة توكيل محمد بن الحنفية (محمد بن علي بن أبي طالب) للمختار، لأخذ ثأر الحسين والحصول على البيعة. فأوفدوا وفدًا إلى ابن الحنفية في المدينة ليسألوه:

ـ فإن أمرتنا باتباعه اتبعناه، وإن نهيتنا عنه اجتنبناه.

ومن الواضح أن ابن الحنفية، على الرغم من أنه لم يمنح أحدًا توكيلًا، ولم يكلِّف المختار بأي حركة سياسية انتقامية لصالحه أو لصالح أهل البيت، فإنه لما وجد نفسه، وهو بعيدٌ آلاف الأميال والفراسخ عن الكوفة، يأتي إليه وفد معبِّرًا عن قوة المبايعة هناك، ووجود أنصار أشداء، وقائد عسكري قادر مشهور، واستعداد لحرب

كاملة هو رمزها والمرشح لزعامتها حال نجاحها، فقد قرَّر أن يمسك العصا من المنتصف، وأن يخبرهم بطريق غير مباشر ولا صريح، أنه موافق على توكيل المختار، وأنه راضٍ أيضًا عن الأخذ بالثأر. فقال لهم:

ـ أما ما ذكرتم من دعاء دعاكم إلى الطلب بدمائنا، فوالله لوددت أن الله انتصر لنا من عدوِّنا بمن شاء من خلقه.

واعتبر الوفد هذه إجابة إيجابية شافية. وعادوا يحملون النصرة المؤكَّدة للمختار الذي فوجئ بموقف ابن الحنفية، وإن كان قد وضع هذا الموقف الإيجابي موضع احتمال، لَمَّا علم بذهاب الوفد من وراء ظهره إلى المدينة. كما أنه قرَّر الإطاحة برؤوسهم إذا نبذوا هذا التوكيل!

وهذا ما دعا المختار إلى الافتراء على ابن الحنفية بشكل أقسى وأفدح، مستغلًّا أمل محمد بن علي في إمامة أو ثأر، حينما حاول إقناع إبراهيم بن الأشتر (واحد من أهم القادة العسكريين في التاريخ الإسلامي كله، وفي مذهب الشيعة على وجه الخصوص) بالانضمام إلى المختار ومبايعته.

ومع أن هذه الرسالة ملفقة ومزوَّرة تمامًا، فقد وافق إبراهيم بن الأشتر على أساسها (وفي قلبه شكٌّ أيضًا) على الانضمام، والمبايعة. وقد كان.

بطبيعة الحال، فإن مدينة الكوفة لا شيء فيها يمكن أن يختفي،

فقد علم الوالي والشرطة (وكانت تحت رئاسة إياس بن مضارب) أن اثني عشر ألفًا قد بايعوا المختار من شتى الجهات والقبائل، وأن إعدادًا قائمًا للانقلاب على الحكومة، والاستيلاء على القصر، يُجرى في منزل المختار، بل وصل الأمر إلى معرفتهم بموعد الانقلاب، وسارعوا إلى محاولة احتوائه قبل تفجُّره.

وكانت الخطة مبنية على أمرين: الأول، إغراق المدينة بالشُّرطة في الأسواق وحول القصر وفي المداخل، لإرهاب أنصار المختار، وثَنْي كل القبائل القادمة لنصرته عن المضي قُدمًا. الثاني، القبض على قائد الجيش، وهو إبراهيم بن الأشتر، لإجهاض قدرته العسكرية وإصابتها بالشلل.

الأمر الأول نجح من حيث انتشار الجند والحرس. أما الثاني، فقد فوجئوا بما لم يتوقعه أحد، فعند محاولة إياس بن مضارب القبض على ابن الأشتر في أثناء خروجه من داره، فوجئوا بهجوم من أنصار ابن الأشتر، انتهى إلى مقتل إياس - قائد الشرطة - بسيف ابن الأشتر، الذي احتزَّ رأسه، وأخذه حتى وصيد باب المختار. وكان هذا إيذانًا بالتعجيل بانقلاب المختار.

وأمر المختار بأن ينادوا في كل مكان بالشعار: «يا منصور أَمِت». وأصدر قرارًا آخر بشعار جديد: «يا لثارات الحسين».

ثم التفت إلى مَن حوله قائلًا:

- إليَّ بدرعي وسلاحي.

وأخذ يلبس زيه العسكري.

في صلاة الفجر، كان المختار يتلو «وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا» في صلاته بين ثلاثة آلاف وثمانمائة جندي من بين اثني عشر ألفًا بايعوه. بينما كان جيش الحكومة الرسمية (عبُد الله بن مطيع) في نحو سبعة آلاف جندي، كان شمر بن ذي الجوشن (أتذكرونه؟) يقود ألفين منهم.

وانفجرت المعركة. وانتقلت من شارع إلى شارع، ومن جبل إلى جبل، ومن جبانة إلى جبانة. واحتدمت في كل شبر من الكوفة. وأُريقَ دم، وطارت رؤوس، وتَمزَّقت أجساد وأبدان. لكن المعركة حُسمت بانتصار مروِّع للمختار. وتم حصار القصر، ثم اقتحامه والاستيلاء عليه، وانسحاب والي الكوفة إلى إحدى الدور البعيدة، تاركًا أشراف الكوفة يطالبون بالأمان من المختار في القصر. ولما أصبح الصباح، أرسل المختار إلى والي الكوفة الهارب، ابن مطيع، مائة ألف درهم، وطلب منه الخروج من الكوفة نهائيًا، لأن القصر للمختار.

وبسط المختار يده لكي يبايعه الناس:

- تبايعونني على كتاب الله وسُنة نبيه، والطلب بدماء أهل البيت، وجهاد المُحلين[1]، والدفع عن الضعفاء، وقتال من قاتلنا، وسِلم من سالَمَنا!

ولمَّا وجد المختار نفسه بين جنوده وأتباعه ومبايعيه وأنصاره أميرًا على الكوفة، بقصرها وناسها وسجنها الذي أُلقي فيه مرتين. ولمَّا

---

(١) الذين أحلُّوا دم الحسين.

وجد نفسه جالسًا على المقعد الذي جلس عليه عبيد الله بن زياد ينظر إلى رأس الحسين المذبوح على خوان مفرود أمامه، التفت إلى أصحابه، وقال:

- إِنَّا مِنَ المُجرِمِينَ مُنتَقِمُون.

الثعابين

واجه المختار بن أبي عبيد خطرين من الداخل والخارج، بعد أن اعتلى عرشه، وطال سيفه، وارتفع لواؤه، ورفرفت رايته فوق قصر الكوفة.

خطر داخلي يتمثل في أشراف الكوفة، الذين يواجهونه لسببين، كلاهما كفيل بإحراق كل جسور التفاهم والتفاوض التي قد يحاول البعض بناءها والعبور فوقها:

السبب الأول: أنهم ضد أي حكومة ثورية في المنطقة، إذ يمثل هذا طعنًا كاملًا على قدراتهم في استثمار النفوذ الاقتصادي الذي يتمتعون به، كما أنه يمثل صعود طبقة فقيرة ليست ذات نسب وراثي، أو أصل عائلي قَبليٍّ يسمح لها أساسًا بالطموح إلى الحكم. كما أنه من الطبيعي أن يكون الأشراف قد وطَّدوا صِلاتهم بالحُكام السابقين، ومدُّوا في نفوذهم وعِتِيِّهم، الأمر الذي يجعل أي تغيير في الحكم ضررًا وضرارًا على مستقبلهم.

ـ والله لقد تأمَّر علينا هذا الرجل بغير رضا منا، ولقد أدنى موالينا، فحملهم على الدواب، وأعطاهم وأطعمهم فَيْأنا[1]، ولقد عصتنا عبيدنا، فحرم بذلك أيتامنا وأراملنا.

السبب الثاني: أن المختار خرج بدعوى الانتقام، ولم يكن ليسمح لنفسه ـ ولا يسمح له الآخرون ـ أن يتنازل عن هذه الواجهة التي قدَّمها لثورته، وهذا الشعار الذي رفعه، والقضية التي تبنَّاها. ولأن الأشراف قد تورطوا حتى لحاهم في مقتل الحسين والتحالف مع عبيد الله بن زياد والي الكوفة السابق وقاتل الحسين. ولأنهم كذلك ينشرون سلطانهم ورعايتهم على عدد كبير ووافر من قَتلة الحسين الذين اشتركوا في جيش ابن سعد، ورفع كل منهم سيفه ورمحه، فإنهم أصبحوا الآن قاب قوسين أو أدنى من الانتقام، وأنه بمجرد أن يفرغ المختار من مواجهة الشام وتدعيم موقفه عند ابن الزبير في مكة سيلتفت لهم بالسيف والحرق والتنكيل.

أما الخطر الثاني القادم من الخارج، من الشام، فقد اجتمع جيش عبيد الله بن زياد (القاتل) على إمرة الآلاف المؤلفة للهجوم على الكوفة وقائدها الجديد وحاكمها المستقبلي، المختار. وكان هذا الموقف مرتكزًا على محورين أساسيين:

الأول: أن دعوة ابن الزبير أساسًا واستقلاله بحكم الحجاز كان أمرًا قد حُسمت مواجهته من قِبل مروان بن الحكم والدولة الأُموية،

(١) الغنيمة التي تُجنَى من الحرب.

وأن السلاح صار هو الفيصل الوحيد بينهما، ومن ثَمَّ كان الهجوم على إماراته ودويلاته أمرًا قائمًا مهما طال الوقت، فلن يستمر التقسيم كثيرًا.

وكان أمرًا مستحيلًا أن تسمح الدولة الأُموية مرة أخرى بانقسام الدولة إلى دويلات مستقلة منفصلة، وأن يخرج المختار مستقلًّا بعرش الكوفة وطموحه لانتزاع البصرة وسائر العراق، بل وإرساله مندوبين وجيوشًا وسفراء لفتح الدول المجاورة التي لم تُفتح حتى الآن.

المحور الثاني: أن دم الحسين مُعَلَّق في رقبة الدولة الأُموية، وأنهم الهدف الأول المباشر من دعوة المختار بالثأر، وأن قادة دولتهم العسكريين هم الذين ارتكبوا مذبحة كربلاء، ومن ثَمَّ، فنجاح المختار يعني ببساطة، الإطاحة برؤوس الدولة، وإحداث عملية خلخلة هواء الكائن الأُموي الذي رُوِّع بحركات انفصالية واستقلالية قلَّصت حكمه، وهدَّدت بقاءه، على الرغم من عُمرها القصير!

وضع أشراف الكوفة أملهم كله في قدوم جيش الشام إلى حدود الكوفة والإطاحة برأس المختار. وكانوا بمثابة الطابور الخامس الذي ينتظر قدوم الجيش الخارجي لإحداث أزمة في الجبهة الداخلية تفجِّر عجز الحكومة عن الاستمرار. وبطبيعة الحال، فإن الأشراف لا يعنيهم أن انتصار عبيد الله بن زياد بجيشه على المختار يعيد الكوفة مرة أخرى إلى حظيرة الدولة الأُموية وينتزع منها ولاءها لابن الزبير وعاصمته.

ووصلت المعركة إلى حافة الروح، حينما انتدب ابن زياد ستة آلاف جندي مسلحين لمعسكرين: على رأس الأول ربيعة بن المخارق،

وعلى رأس الثاني عبد الله بن حملة، لملاقاة جيش المختار بقيادة يزيد بن أنس. وجرت موقعتان ناريتان، أطاح فيهما جيش المختار بالمعسكرين معًا، وقتل قائدَيهما. لكن يزيد بن أنس قائد الجيش لقي ربه بعد مرض أصابه، وبلغت الأنباء مداها، بأن جيش ابن زياد قادم ـ بعد هزيمة طلائعه ـ بثمانين ألف جندي ومقاتل، وأن هذا يعني موتًا أكيدًا لجيش المختار.

وأمر المختار قائده إبراهيم بن الأشتر بالخروج في سبعة آلاف لمواجهة ابن زياد وجيشه. وما إن خرج ابن الأشتر من الكوفة، حتى استيقظت عيون الأشراف والتمعت طموحاتهم، وقرروا الخروج والإطاحة بقصر الكوفة وسيده المختار، بعد أن سافر جنوده وذهبت جيوشه.

وحشد الأشراف القبائل وأنفقوا على الفرسان والعتاد، ووعدوا رجالهم بالنصر والفوز المادي الكبير، واتهموا المختار بالكذب والادِّعاء. وأدرك المختار في القصر، خيوط الشبكة التي تلتفُّ حول عنقه من ثعابين الكوفة، فأرسل من فوره إلى إبراهيم بن الأشتر أن يعود، واستغرق في مفاوضات طويلة مع الأشراف لكي يكسب وقتًا، وهم يحاصرونه، ويمنعون عنه الماء.

وعاد ابن الأشتر بجيشه بعد ثلاثة أيام. وأُسقط في يد الأشراف، لكن السهم كان قد نفذ، ودارت معركة طاحنة، كان أشهر قادتها في جيش الأشراف، شمر بن ذي الجوشن، ومحمد بن الأشعث، وشبث بن ربعي، ومعظم جنوده من قَتلة الحسين. وكان على رأس

جيش المختار إبراهيم بن الأشتر. وفي بحر الدم الذي جرى، انتصر ابن الأشتر والمختار.

أخذ المختار يسير بين خمسمائة. توقف أمام أحد الوجوه المأسورة، اقترب حارس منه، وأشار إليه:

- هذا من قَتلة الحسين.

نظر إليه المختار، وهتف:

- اضربوا عنقه!

ويستكمل مسيرته، ويقترب الحارس مشيرًا إلى أحد الأسرى:

- هذا ممن شهد مقتل الحسين.

فيومئ المختار برأسه:

- اقتلوه!

في آخر ساعات النهار، كان نصف الأسرى قد قُتلوا جميعًا، وأُلقيت رؤوسهم على الرمال الساخنة. مائتان وثمانية وأربعون رأسًا رأت بعيونها الحسين، وقَتلَته!

الحصار

الرياح التي تعصف بقوائم الخيل، وتُثير سعف النخيل، وترفع ثرى الأرض عن موضعه، كانت ساخنة جدًّا في الكوفة هذا الموسم، محمَّلة بلون الدم ولزوجته وسخونته أيضًا. فقد كان المختار مستقيمًا وواضحًا مع نفسه ودعوته للانتقام، عندما أعلن في اجتماع عسكري مع رجاله أن للثأر للحسين وقَتْل قَتلَتِه ثلاث طرق:

- الحرق بالنار، تلك النار التي أشعلها القتلة في خيام وبيوت الحسين التي لجأت إليها النسوة والصبية. وألسنة النار التي ارتفعت فوق الخشب والقصب والحطب وراء الحسين حتى يأمن الغدر، يُحرَق بها القتلة، وتتفحم أجسادهم، وتنسلخ جلودهم، ويلقون عذاب الدنيا، قبل الآخرة.

- قطع الأطراف، الذراعين بدءًا، ثم الساقين، واللسان، ثم ترك القتيل حتى يموت وحده، إجابة على حزِّ رأس الحسين، وشق الرماح للصدور والظهور يوم كربلاء.

• الرمي بالنبال والرماح حتى الموت.

الموت انتقامًا!

الموت حكمًا!

الموت إدانةً!

خطف فرسه، وألقى بجسده فوق سرجه، دفعه وأخذ يعدو، شمر بن ذي الجوشن ومعه نفر من أصحابه، يفرُّون من ذيل الهزيمة التي تلتصق بأدبارهم، ويسابقون سيف الموت المُصْلَت على أعناقهم بعد هزيمتهم من جيش المختار في الكوفة.

كان شمر يهتز فوق فرسه، يرمق بعينيه الظلام الزاحف على الفضاء، وهو يتذكَّر ليلة جلوسه إلى جوار عبيد الله بن زياد في قصر الكوفة ممسكًا بسيفه، مشيرًا إلى كربلاء على ذلك الرمل المرسوم بصحراء العراق، طالبًا من ابن زياد الحزم والحسم في قتل الحسين. يتذكَّر زحفه بالجنود، ولحاقه بجيش عمر بن سعد، وتولِّي ميمنته، وتعبئته للعسكر والجنود، وتحذيره لهم من سماع خطبة الحسين.

كان شمر ينتفض على الفرس بين أنصاره، لاحقًا برمال الصحراء والنخيل، يلوح لعينيه من بعيد مشهد سقوط صحابة الحسين قتلى وصرعى، وبقاء الحسين وحيدًا، يلتف حوله أربعة آلاف جندي من دون أن يقربوه، فيصرخ فيهم شمر تلك الصرخة التي ترنُّ في رأسه وتملأ أذنه كذَكَر النحل:

ـ ويْحَكُم، ماذا تنتظرون بالرجل؟ اقتلوه!

بعد ساعات من اللهث والجري بالأحصنة، أدرك شمر أن أحدًا يتبعه، وأن فرسًا يدق بحوافره في ذات اللحظة التي ترتفع فيها حوافر فرسه. وبعين خبرت الغدر واحترفت الغيلة، يطلب من أصحابه أن يسبقوه، حتى يصبح بمفرده، فيطمع فيه الفارس القادم وحده:

ـ اركضوا، وتباعدوا عني، لعل العبد يطمع فيَّ!

نفَّذ أصحابه الخطة السريعة البسيطة. التفت شمر إلى الفارس، فوجده غلامًا صغيرًا مندفعًا غضًّا، فدنا منه، ودق ظهره بالسيف.

وأكمل شمر رحلته تاركًا جثة الغلام، لاحقًا بأصحابه، حتى نزلوا إلى جانب قرية يقال لها «الكلتانية»، على شاطئ نهر وإلى جانب تل. عسكر شمر على الشاطئ المقابل للقرية، يلمح عنده روابيها وشجرها وبيوتها. وأخبر أصحابه أنهم سيبيتون الليلة في هذا المكان، ويرسلون منه إلى مصعب بن الزبير (شقيق عبد الله بن الزبير) تمهيدًا للجوء إليه، والتستر بحكم أخيه ورايته.

واستدعى شمر أحد العبيد الأعاجم من القرية، وكتب له رسالة إلى مصعب، وأمره بالذَّهاب إليه من توِّه. فمضى الأعجمي حتى نزل إلى قرية مجاورة، أدهشه ما بها من فرسان وأحصنة وأسلحة، كأنها على حافة الحرب، فهبط عن فرسه، وتحدَّث مع أحد الأعاجم

الذين لقيهم مصادفة. وبينما هو يبث تعبه ورحلته لصاحبه، إذ برجل يمر فيسمع كلمة «شمر»، ودنا منهما وسألهما عن معرفتهما بشمر هذا، فأخبره الأعجمي بالقصة كاملة، فأخذه الرجل من يده، وذهب إلى «أبي عمرة»، وهو صاحب المختار الذي أرسله للقيادة المسلحة لهذه القرية لكي تكون حصنًا بينه وبين البصرة. وأخبرهم الأعجمي بمكان شمر بن ذي الجوشن.

كانت الذئاب تعوي في الصحراء، ويشق جريها المفزع الخيام التي لجأ إليها شمر وأصحابه، الذين طلبوا منه الارتحال عن هذا المكان، لكنه أبى ورفض. وبينما الليل يجثو على الصدور والخيام والعيون، وبينما الذئاب تُعلن عن وجودها بالعواء والجري، كانت حوافر الخيل تشق الطريق إلى الخيام. فوقها رجال المختار، يعدون بسيوفهم ورماحهم في الهواء، فتبرق في الليل المحيط.

اقتربوا. كبَّروا، فانتفضت الخيام بالرجال مفزوعين يجرون في كل مكان محاولين المقاومة، وإذا بشمر يخرج من خيمته مضطرًا تفجؤه الصدمة، فأخذوه وهو يستر عُريه وبَرصَه (كان مريضًا بالبَرَص) برداء واسع، بعد أن أعجزته المفاجأة عن استكمال ثيابه ولبس سلاحه.

خرج بالرمح في يده، والحقد والخوف والذعر واليأس والتنمُّر تحشو نظراته. جرى عنه أصحابه، وفر عنه رفاق رحلته. انغرست في جسده السيوف والرماح من كل جانب، وتَفجَّرت مواسير الدم من جسده، تداري عُريه، وتستر بَرصَه.

وصاح رجال المختار:

ـ الله أكبر! قُتل الخبيث!

ولمّا وصلت أصداء الصياح والتهليل إلى أصحاب شمر الهاربين أيقنوا أنه قد قُتل.

أين الحسين؟!

قام المختار من مقعده، منتفضًا مدوِّيًا، وقد تَشنَّج جسده، وارتعدت عيناه، ملوِّحًا بيديه، ضاربًا بقدميه بلاط القصر الذي ران عليه السكون وتقوقع كل مَن فيه في الصمت.

صرخ المختار:

- أين الحسين بن عليٍّ؟ أعيدوا إليَّ الحسين! أريده هنا.

واقترب من الرجال الذين اصطفوا أمامه، يرتدون الخزي والعار. أمسك المختار بهم، وقد أرعبتهم نظرته:

- يا أعداء الله، وأعداء كتابه، وأعداء رسوله وآل رسوله، أين الحسين بن علي؟ أعيدوا إليَّ الحسين، قتلتم مَن أُمرتم بالصلاة عليه في الصلاة؟!

وفي لهجة غارقة في الخشوع والخضوع والذل:

ـ رحمك الله! بُعِثنا ونحن كارهون، فامنُن علينا واستبْقِنا[1].

واخترقهم المختار بفحيح صوته:

ـ فهلّا مننتم على الحسين ابن بنت نبيكم، واستبقيتموه وأسقيتموه؟!

واقتحم المختار الهواء المحيط بأحدهم. دنا منه. عرفه. إنه مالك بن النسير، ذلك الذي ضرب الحسين بالسيف على رأسه، فقطع غطاء رأسه (البُرنُس)، وأغرقه في الدم، ثم سرقه ومضى. حاصر المختار مالكًا بذراعيه، هزَّ جسده الغارق في الارتعاش، وهتف في عسكره وحُرَّاسه:

ـ اقطعوا يد هذا الرجل ورجليه، ودعوه ينزف الدم حتى يموت.

والتفت إلى الآخرين:

ـ واقتلوا هؤلاء.

ذهبوا بمالك بن النسير مدلَّى الرأس، محنيَّ الظهر، يتذكر يوم دخل على زوجته ببُرنُس الحسين، ففزعت منه، وطلبت إليه هجرانها وعنَّفته:

ـ أتسرق ابن بنت النبي وهو مقتول مسفوح الدم؟!

استسلم مالك للسيوف، تُطيِّر أطرافه، وتقطع لحمه. وفي بحيرة من دم، مات.

---

(١) اتركنا.

بعد نهار مضى...

كانت هناك أربعة رؤوس جديدة معلَّقة في سوق الكوفة. وكان العابرون والذاهبون، الراكبون فروسهم ودوابِّهم، والسائرون على أقدامهم، كان الرجال والصبيان والنساء والفتيات والأطفال واللاهون اللاعبون في ساحة السوق، يحيطون بالجمع الذي توافد إلى الساحة، يتابعون صعود السيوف في الهواء، وسقوطها على أعناق أربعة من قَتلة الحسين.

بعض الناس هلَّل وكبَّر، وآخرون أغمضوا عيونهم، وبعض آخر تذكَّر ليلة مقتل الحسين. وسيطرت على الأحاديث كلها ذكريات دوران رجال ابن زياد في أنحاء الكوفة برأس الحسين معلَّقًا على خشبة.

لا الرؤوس تتساوى! ولا الدماء تتشابه!

حاصر الجند اثنين من الذين شهدوا قتل الحسين، وهما عثمان بن خالد بن أسير وأبو أسماء بشر بن سوط، واشتركا في قتل عبد الرحمن بن عقيل بن أبي طالب وفي سلبه، كان الاثنان يختبئان في جبَّانة، حتى تهدأ بعض الضجة، ويستطيعا الهروب إلى الجزيرة العربية، لكنهما سمعا حوافر الخيل، واصطكاك السيوف، وهمهمات الشرطة، فأدركا أن الموت يحيق[1] بهما. حتى أحاطت بهما الأيدي، وقادتهما إلى الموت، وفي موضع «بئر الجعة» ضُربت

(١) يحيط.

أعناقهما. وجرى عبد الله بن كامل، وكان واحدًا من أهم الرجال الذين ساعدوا المختار على الانتقام، ليخبر المختار بخبرهما. لكن على عكس ما تَوَقَّع تمامًا، ران على المختار صمت وتحديق. ثم أشار إلى صدر ابن كامل:

ـ اذهب، فارجع إليهما، وأحرقهما.

ولمَّا مضى ابن كامل إلى الباب لينفِّذ أمره، قال المختار:

ـ يا ابن كامل، لا يُدفَنان حتى يُحرَقا.

ونفذ ابن كامل الأمر!

بينما المختار يسير في أنحاء الكوفة يتفقَّد الحال ويبحث مخابئ القتلة وملاجئ الفارِّين، جاءه الرسول مسرعًا أن رجاله أحاطوا بخولي بن يزيد، الذي احتزَّ رأس الحسين، ودخلوا عليه منزله، المنزل ذاته الذي دخله خولي منذ أربع سنوات مغرورًا بانتصارهم، فرحًا بسلطانهم، يحمل في جِوَاله رأس الحسين الشريف. عينان ما زالتا معلَّقتين بجسده المُلقى على الرمال، غارقًا في الدماء والطعان، وأمر شمر بن ذي الجوشن يصك أذنه: «اهبط فاحتز رأسه». يذكر دخوله حتى الهواء الفاصل بينه وبين جسد الحسين، تردُّده وخوفه، تقدُّمه ورجوعه، اقتحامه وانسحابه، رفع السيف، نزوله من الهواء، ارتجاجه، هبوطه حتى العنق، اصطدامه بالرقبة، انبثاق الدم، فصل العنق، ثقل الرأس، ظلام القلب، ارتعاش البدن، ركوب الفرس، الذَّهاب إلى القصر، غضبة زوجته عليه لمَّا دخل عليها برأس الحسين،

وخز الشوك في صدره، رُعبه من الموت، انتظار وقوعه بعد انتصار المختار، اختفاؤه عن الأنظار، اللجوء إلى الجدران، تفكيره في الفرار من الكوفة، سماعه لاقتحام الرجال المنتقمين لباب داره، لهاثه بحثًا عن مخبأ، سؤالهم لزوجته، وكانت زوجته لمَّا سألوها عنه أجابت:

ـ لا أدري أين هو.

ولكنها أشارت بيدها إلى مكان. فدخلوا عليه، ووجدوه. وهنا، أرسلوا في حضور المختار.

هرول المختار إليهم.

وأمام أهل الكوفة، ابن يزيد، صاحب رأس الحسين، وبين حضور المئات من أبناء الكوفة إلى المكان، واحتشادهم للنظر فيما يحدث، وترقُّبهم لعقاب المختار. التفت المختار وهو يراقب الجموع المحتشدة المنتظرة. وأطلق قراره:

ـ أشعلوا النار.

أوقدوا نارًا مرتفعة الألسنة، مشرعة الأسنة، وأخذوا خولي بن يزيد، أحَلُّوا قيده، وانكبَّ على الأرض، وارتفعت السيوف، وعبَّأت جسده بالطعن. وقبل أن يلفظ روحه، ألقوا به في النار.

ولم يتحرَّك المختار حتى أمعن النظر في النار المشتعلة، وأدرك أن خولي بن يزيد الذي تَجرَّأ يومًا وزحف نحو جثة الحسين، وذبح رأسه، قد مات، وتَحوَّل إلى رماد!

ولا سواء!

كان عمر بن سعد بن أبي وقاص، يسير على نار متأججة من القلق والرعب. وقد تَعَوَّد منذ زمن ارتيادَ الخوف وترويضه، منذ بدأت نداءات الانتقام تلتفت إليه أول ما تلتفت، فهو قائد الجيش الذي حارب الحسين وقتله، وهو القائد الذي ألقى سهمه من قوسه، وأشهد الجميع أنه أول مَن رمى.

عمر بن سعد الذي قاد أربعة آلاف الجندي حتى قتْلهم الحسين!

نسي عمر تاريخ أبيه العظيم، فاتح هذه البلاد وما وراءها. نسي سعدَ بن أبي وقاص المبشَّر بالجنة، أول من رمى بسهم في الإسلام، مقبول الدعوة، القائد الفذ، المسلم التقي الورع. نسي أباه، وتاريخه. لأنه ببساطة نسي دينه ونبيه.

شيء واحد كان يرقص أمام عينيه، إمارة الري، والاقتراب من النفوذ والسلطان، والاستقرار على مقعد السُّلطة، مدفوعًا بنقص إمكاناته عن الوصول إلى مكان أبيه، وعلة أخلاقه عن الوصول

إلى محبة الناس، وضعف مواهبه عن الوصول إلى كبرياء وشمم الصالحين.

لأنه لم يكن وراءه إلا هذا، فلم يكن أمامه إلا أن يقتل الحسين!

ومع أن بعض الأمن قد تسرَّب إلى قلبه لما سكت عنه المختار كل هذا الوقت، وأرسل له بالأمان بشرط ألَّا يُحدِث حدَثًا، فإنه بدأ ينتقل من مكان إلى آخر، ولا يبيت في مكان واحد ليلتين متعاقبتين، لكن لمَّا أعياه الانتقال والرحيل اليومي والقلق القاتل، عاد إلى داره، وكان يبلغ المختار كل تحرُّكاته ولفتاته وإشاراته. وكان يقول إن في عنقه سلسلةً ستردُّه، لو جهد أن ينطلق ما استطاع!

أرسل المختار إليه من فوره أبا عمرة، أحد رجاله الأقوياء. فدخل أبو عمرة على ابن سعد، فلمحه الأخير، فبُهِتَ وتَجمَّد وفزِعَ، ثم حاول الفرار، فانسدَّت في وجهه الطرق، وأظلمت في عينيه الدار، فتعثَّر في جُبته، واشتبكت رجله في ثوبه فسقط، فاقترب منه أبو عمرة، وتأمل سقطته وعثرته، ورفع السيف فأهوى عليه وقتله، ورفع خنجره، فاحتز رأسه، وأخذه، ومضى إلى المختار.

كان المختار قد جلس مطمئنًّا إلى إحكام قبضته، وتَمكُّن قادته، وتَحقُّق انتقامه، وهو يراقب حفص بن عمر بن سعد، الذي دعاه لزيارته في قصره حينما دخل أبو عمرة بالرأس مذبوحًا ملفوفًا:

ـ أتعرف هذا الرأس؟

أدرك حفص أن الرأس رأس أبيه. وبين دموع وندم، وإشفاق وفزع، قال:

ـ نعم، ولا خير في العيش بعده!

قام المختار من جلسته قائلًا:

ـ صدقت. اضربوا عنقه!

وقتلوا ابن عمر.

ووقف المختار بين الرأسين:

ـ هذا بالحسين، وهذا بعلي الأكبر ابن الحسين، ولا سواء. والله لو قتلت به ثلاثة أرباع قريش ما وَفَّوا أنملة من أنامله!

حتى مَن رمى الحسين بسهم لم يُصِبْه، أصابته دائرة الانتقام، التي باتت فخًا عنكبوتيًا لكل الحشرات التي شاركت في المذبحة.

جثا حكيم بن طفيل الطائي على رُكبتيه لاهثًا مذلولًا:

ـ تَعَلَّق سهمي بثيابه، وما ضرَّه.

لكنَّ رجال المنتقم قيَّدوه، ووضعوه أمام جدار في الكوفة، ونصبوه غرضًا لنبالهم وأسهمهم. وصرخوا فيه:

ـ سلبت ابن علي ثيابَه، والله لنَسلُبنَّ ثيابك وأنت حي تنظر.

واقتربوا منه، وبدأوا ينتزعون عنه ثيابه قطعة قطعة. ثم عادوا وقالوا:

ـ رميت حُسينًا واتخذته غرضًا لنبلك. وايم الله لنرمِينَّك كما

رميتَ بنبال، ما تَعلَّق بك منها أجزاك.

إذا كانت الأسهم والنبال التي أطلقها لم تُصِب الحسين، فإنهم سيطلقون عليه ـ كما أطلق ـ نبالًا، لعلها لا تصيبه، كما حدث مع الحسين. لكنهم ـ كما فعل هو أيضًا ـ ألقوا النبال دفعة واحدة خرجت منهم جميعًا. ورشقته النبال، ما تَعَلَّق منها في ثوبه أو في جوفه، وخرَّ ميتًا.

كذا...

ذلك الرجل الذي رشق عبد الله بن مسلم بن عقيل وهو صبي صغير يقف وسط المعركة ـ المذبحة ـ يوم كربلاء، واضعًا كفَّه على جبهته من هول ما يرى، رشقه بسهم ألصق كفه بجبهته، ثم رماه بسهم آخر فقتله. ذلك الرجل زيد بن وقاد الذي دعا عليه الفتى:

ـ اللهم إنهم استغلُّونا واستذلُّونا، اللهم فاقتلهم كما قتلونا، وأذِلَّهم كما استذلُّونا!

التفوا حول بيته، وأمرهم ابن كامل:

ـ لا تقربوه بسيف، ولا تطعنوه برمح، لكن ارموه بالنبل، وارجموه بالحجارة.

فانهمرت عليه النبل والحجارة من كل جانب وهو مكشوف لهم تمامًا، وسقط مسكويًا في الدماء.

فقال ابن كامل:

ـ إن كان به رمق فأخرجوه.

أخرَجُوه ـ فقد كان به رمق ـ فدعا ابن كامل بنار، فأشعلوها، وعلا أوارها وارتفع. وكان زيد يرمق ـ وهو بين الموت والحياة ـ النار المشتعلة، ويتمنى أن يخطو خطوته الأخيرة نحو الموت، قبل أن تَمسَّه النار وتحرقه رمادًا.

لكنه بعينيه رأى الرجال يجرُّون عظامه المكسورة، ويقودونه حتى النار، وألقوا به حيًّا داخلها!

وأمر المختار، فحُرِّقت ديار، وتَحطَّمت بيوت، عاش فيها قَتلة الحسين، أو هربوا إليها، أو اختبأوا داخلها حتى أوشك على القضاء على جيش القتلة جميعهم. إلا مَن مات قبل دعوته بالانتقام، أو انقطع أثره وابتلعته الأرض.

ولم يعُد هناك إلَّاه...!

هو، عبيد الله بن زياد، ابن مرجانة القاتل!

أرسِلُوه إلى المختار

ـ هذا قاتل ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، قد جاءكم الله به، أمكَنَكُم الله منه اليوم، فعليكم به، فإنه قد فعل في ابن بنت رسول الله ما لم يفعله فرعون في بني إسرائيل، هذا ابن زياد، قاتل الحسين، الذي حال بينه وبين ماء الفرات، أن يشرب منه هو وأولاده ونساؤه، ومنعه أن ينصرف إلى بلده، حتى قتله. ويحَكُم، اشفوا صدوركم منه، واروَوا رماحكم وسيوفكم من دمه، هذا فعل في آل نبيكم ما فعل، وقد جاءكم الله به.

وقف إبراهيم بن الأشتر في جنده خطيبًا، على فرسه، وبين رحله، يمر بين الصفوف، ويرفع الكفَّ، ويشرع السيف، ويزأر بالحرف، ويؤكد الصوت، يحشدهم ويدفعهم ويعينهم، أمام جيش عبيد الله بن زياد القادم من الشام لنحر رأس ابن الأشتر، ثم الإطاحة بالمختار وثورته وانتقامه ودويلته.

كان عبيد الله بن زياد وسط حراسه، في جيش تجاوز الستين

ألفًا من الجنود، أمام سبعة آلاف جاءت خلف ابن الأشتر. لذلك كان واثقًا تمامًا أن النصر حليفه، وأنه سيفرُّ من ربقة الانتقام ودائرته التي تحيط بقَتلة الحسين.

ارتدى لباسه العسكري، وتَعطَّر بالمسك، وتَجسَّس لحيته. ما زال ابن مرجانة يذكر قصة الكوفة يوم دخلها متسللًا في الظلام، وقد امتلأت المدينة بأنصار مسلم بن عقيل، وما زالت تخرق أذنه صيحات الآلاف الأربعة الذين أحاطوا بالقصر وهددوا رأسه بالسقوط، وحكمه بالضياع.

معلَّقة في سيف رأسه صورة المختار ليلة دخل عليه ساحة القصر طازجًا برائحة السجن، ليلة تحذيره من البقاء في الكوفة أكثر من ثلاثة أيام بعد الإفراج عنه وإلا أحلَّ دمه وأبرأ ذِمَّته، العين الواحدة التي تنفث غضبًا ووعيدًا، الجسد الهائل الذي ينمُّ عن قوة لا ترحم، وعزم لا يُفَل.

كانت أنباء انتصارات المختار وانتقاماته تشقُّ صدره وأذنه مع تساقط قاتلي الحسين. لم يعد إلَّاه. وحدَه!

مطلوبًا دَمُه، ومهددةً رُوحُه، ومطاردًا جسَدُه!

ـ آه يا أمّ!

يتذكَّر أمه الطيبة مرجانة، يوم أدركت ابنها قاتلًا للحسين، فالتاعت، وفزعت، وتَطيَّرت، واغتمَّت، وتَحزَّنت، وتَأوَّهَت:

ـ يا خبيث! قتلت ابن بنت رسول الله! لا ترى الجنة أبدًا!

خرج ابن زياد من خيمته والكون ما زال يصحو لحظة السحر، حينما سمع صوتًا ينادي وهمهمة ترتفع:

ـ لقد جاءوا!

ـ جاء ابن الأشتر!

ثقب الصوتُ رأسه، وعلم أن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الأمر لا يعني هزيمة جيش الشام أمام جيش المختار والعراق فقط، ولا يعني انتصاره وعودة البصرة والكوفة والعراق بأسرها إلى الملك الأُموي فقط، إنه يعني شيئًا واحدًا له: أن انتصاره يعني بقاءه حيًّا ونجاته من الانتقام، وأن هزيمته معناها تمزيق جسده إرْبًا تحت أقدام المختار.

لهذا دخل المعركة، وهو يدرك أنها معركته هو شخصيًّا، لا معركة الشام ولا معركة مروان، ولا الستين ألف جندي. إنها معركته وحده. قاتل الحسين مع المنتقم!

وتقاتل الجيشان قتالًا كثيفًا دمويًّا وخطيرًا. وانكشف جيش المختار، ثم عاد والتأم. وانتصر جيش ابن زياد، ثم عاد وانهزم.

وشدد ابن الأشتر من قوة المعركة، فدخلها بنفسه، فجعل يقتل فيهم كما تُقتَل الخراف صبيحة عيد الأضحى. وبدأ القتلى يتساقطون بالمئات، وقد أحس ابن الأشتر أن النصر نصره.

وخلت الصحراء من أي شيء إلا الجثث التي غطت الرمال، وضيَّقت على العين رؤية انطباق الأفق.

ووقف ابن الأشتر بين صحبه المنتصرين المنتقمين، وقال لهم:

ـ التمسوا في القتلى رجلًا، ضربتُه بالسيف فنفحتني منه ريح المسك، شرقت يداه وغربت رجلاه، وهو واقف عند راية منفردة.

وبحثوا عن الرجل، ووجدوه.

لقد كان عبيد الله بن زياد!

ولقد شقه ابن الأشتر شقين. قسمه السيف قسمين: ذهبت يداه شرقًا، ورجلاه غربًا، وغطًّى الدم ما بين نصفيه المنفصلَين.

إنه عبيد الله بن زياد!

أخبروا ابن الأشتر، فحمد الله وأثنى عليه:

ـ اقطعوا رأسه، وأرسلوه إلى المختار!

دائرة الانتقام

ـ إنما أنا رجل من العرب، رأيت ابن الزبير انتزى على الحجاز، ورأيت نجدة (زعيم انفصالي في اليمامة) انتزى على اليمامة، ومروان على الشام، فلم أكن دون أحد من رجال العرب، فأخذت هذه البلاد فكنت كأحدهم، إلا أني قد طلبت بثأر أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم، إذ نامت عنه العرب، فقتلتُ من شرك في دمائهم، وبالغت في ذلك إلى يومي هذا.

هذه هي مقولة المختار الثقفي التي تمثِّل مفتاحًا لفهمه تمامًا. قالها وهو يخطو نصف خطوته الأخيرة نحو الموت، حينما حاربه مصعب بن الزبير حربًا لا هوادة فيها، استمرت وقتًا غير قصير، وسالت دماء حتى المناكب، وانتُزِعت فيها الرماح، واختلطت والتحمت فيها السيوف. وقُتل المختار بعد أن صار في تسعة عشر فقط من جنده، وقرَّر الباقون الاستسلام.

قُتل المختار بعد أن أنهى حياة قَتلة الحسين، وذلك في رمضان سنة سبع وستين، عن عُمر سبعة وستين عامًا.

ولقد كان المختار شخصًا غير عادي بكل المقاييس، بما يملكه من دهاء سياسي، وقوة إرادة، وخطابة بليغة، وحسن إدراك وتدبير، وقدرة على جذب الجماهير والاستحواذ على مشاعرهم، وإدارة قادته ورجاله وإقناعهم.

لماذا أراد المختار الثأر!

الثابت أن المختار كان من الشيعة الذين يُحبون أهل بيت النبي، وعلى إيمان مطلق بمكانة علي بن أبي طالب (رضي الله عنه). والثابت أيضًا أنه خرج لنصرة الحسين، لكن السجن حال دون هذه النصرة، التي نعتقد أنها ما كانت لتضيف شيئًا إلى ما حدث. ولكن ـ فيما نعتقد أيضًا ـ كانت بداية التحرُّك الرئيسي في نفس المختار تجاه الثأر بهذا العنف، في السجن، وبعد اعتقال ابن زياد له، وشطر عينه!

في السجن كان قرار المختار بالانتقام، وكان إحساسه بذاته قد بلغ مدى عاليًا، وكانت أيضًا حالة التأمل والتفكر بين جدرانه، التي أسهمت في كشف المستقبل ومحاولة قراءة القادم.

وكان طبيعيًّا عندما يدرك المختار ملابسات المذبحة التي جرت أن تجرحه في غشاء قلبه تمامًا، وكذلك في كبريائه، فقد اعتقد أنه شارك بشكل ما ـ بسجنه ـ في خذلان الحسين. كما أنه كان ناقمًا تمامًا على موقف أهل العراق وخصوصًا الكوفة، ومحمولًا بكراهية لا حدَّ لها للبيت الأُموي، وعبيد الله بن زياد على وجه التحديد.

أصبح الثأر واجبًا، لأنه على قدر ثأره من قَتلة الحسين، ثأر آخر من استبعاده من القتال والمواجهة ونصرة الحسين، وثأر أيضًا من الأُمويين، وابن زياد.

ويمكن أن نرجِّح أيضًا أنه حتى لو لم يُقتَل الحسين على أرض كربلاء، كان ممكنًا أن يخرج المختار بدعوة انفصالية استقلالية ضد الأُمويين أيضًا، ليس فيها شعار الثأر.

وكان المختار مدفوعًا بالبحث عن المُلك والحُكم.

لماذا؟

لأنه لو كان يريد انتقامًا من قَتلة الحسين، لكان من الممكن - ببساطة - أن يشكِّل فِرَقًا استشهادية، ويقود حرب عصابات محدودة العدد، سهلة التحرُّك، سلسة النفاذ، خارقة النتائج. وكان يمكن - وهذا ما تثبته أوراق التاريخ - أن يصل إلى غرف نومهم ويغرقهم بالدم! إذا كان يريدها انتقامًا.

لكنه كان يريد الحكم والملك أيضًا، فقد رأى عبد الله بن الزبير ويزيد، وكلاهما في نظره أقلُّ كفاءة منه وأدنى منزلة وأضعف قوة، إلى جانب طموحه الواسع، وشجاعته النادرة، وروحانيته المعروفة، وحُبه للحسين، وتشيُّعه لعلي. إلى جانب هذا كله فإن البحث عن المُلك كان الأساس.

بينما وُضعت دعوة الثأر كواجهة تُضفي عليه مصداقية الشرعية. هذا أولًا.

ثانيًا: تجعله ينطلق في البداية من قاعدة جماهيرية واسعة وقوية، هي الشيعة.

ثالثًا: تضمن له بقاءً وخلودًا يتمناه ويرجوه، ويسعى إليه حال فشله أيضًا.

لكن، كل هذه الأمور اتسعت واشتدَّت إلى ما فيه من مبالغة وشطط أحيانًا. فقد كان الانتقام مروِّعًا وعنيفًا وجماعيًّا ونادرًا، ومع أن إحساسه بالتشفي والشماتة ـ قد لا يَخفى ـ يجول في الخواطر في أثناء زيارة التاريخ ورؤية نهايات الطغاة، فإننا لا نستطيع أن نُخفي أيضًا تذمُّرنا من الدموية والتَّصفَوِية والسَّادية التي اتسمت بها عمليات الانتقام، وما شملته من عمليات تمثيل بالجثث، وتحريق، وتقطيع أطراف، وقتل جماعي، ورجم بالحجارة، وموت بطيء، وبحور دم لا تنتهي. وكلها أفاعيل، حتى إن لجأ إليها القَتلة من قبل، فما كان يرضاها الحسين العظيم، ولا الضمير الإنساني.

وقد روت بعض المصادر التاريخية أن المختار ادَّعى النبوة، وأنه زعم أيضًا أنه يستقبل الوحي ويراه. لكن ضعف وهشاشة الاتهام بادعاء النبوة يجعلنا نتجاوز إلى الاتهام الحقيقي الثابت، وهو أنه زعم أنه تلقَّى وحيًا.

وقد قيل لابن عمر، وهو وإن كان صهر المختار، فإنه عالم عادل لا يخشى في الحقِّ لومة لائم، ومن أكثر أتقياء عصره وأرفعهم قدرًا وأجلِّهم علمًا، قيل له: إن المختار يزعم أن الوحي يأتيه. فقال: صدق، قال تعالى: ﴿وإنَّ الشَّياطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَولِيائِهِم﴾.

وتثبت قرائن كثيرة قدرة المختار بالفعل على التنبؤ واتصاله ـ بشكل ما ـ بالغيب وقراءته، كما روينا في صفحات سابقة عن طلبه لأحد أصحابه أن يحفظ عنه ما يقول لأنه سيتحقق، وتَحقَّق بالفعل! وقوفه أيضًا على المنبر قبل انتصار إبراهيم بن الأشتر على جيش ابن زياد، وأخبرهم ببشارة النصر قبل أن يجيء الخبر.

أكان ذلك تفاؤلًا منه؟ أو اتفاقًا وقع له؟ أو كهانة؟

ونحن لا نميل إلى ترجيح أي التفسيرات، لكننا نعتقد أنها كلها تدخل في إطار تلك الشخصية غير العادية.

عندما أُسِر سراقة بن مرداس (أحدُ المحاربين ضد جيش المختار في موقعة من معارك الحرب الأهلية التي جرت مذابحها في الكوفة) أقسم أنه رأى الملائكة على الخيول البُلْق بين السماء والأرض، وأنه لم يأسر إلا واحدًا من أولئك الملائكة، فأمره المختار أن يصعد ويخبر الناس بذلك، فلما نزل خلا به المختار، وقال له:

ـ إني قد عرفت أنك لم ترَ الملائكة، وإنما أردتَ بقولك هذا أني لا أقتلك، ولست أقتلك، فاذهب حيث شئت لئلا تُفسِد عليَّ أصحابي.

أي أن المختار كان يدرك أن مسألة اللعب في دائرة علم الغيب لها حدود، وأن الأمر ليس مفتوحًا إلى حد ادعاء نزول الملائكة، ولكنه استغل ذلك أيضًا في الدعاية حوله وإعطاء هالة تقديس ما، وهو شيء يتسق مع طبيعة المختار أيضًا، كما أنه وضع للأمر حدًّا

حتى لا يفسد أصحابه بين مكذِّب ومعتمد على حرب الملائكة نيابة عنه!

وهو ما أفلت منه أحيانًا بالفعل، خصوصًا فيما يتعلق بواقعة الكرسي، ذلك الذي ادَّعى أحد صحابته أن أباه كان يجلس على الكرسي فيرى الغيب ويصل منه إلى المأمول، فأخذه المختار وحاول أن يقيم نفس الهالة والدعاية ـ المجانية ـ له، لكن لمَّا صادف انتصار الناس على جيش الشام والكرسي معهم، اعتقدوا فيه وهمُّوا أن يُفتَنوا به.

ويظل السؤال: هل تَحقَّق الثأر من قَتلة الحسين؟

أبدًا.

هذه هي الإجابة، بعد كل الدم الذي أُريقَ، والقَتلة الذين ذُبحوا بذات الطريقة!

أبدًا.

هذه هي الإجابة.

فلم يكن خروج الحسين ولا قتاله ولا شهادته طلبًا للحكم! ولم تكن مقاومته ونضاله وإصراره طلبًا لنفوذ وسلطان.

كان العطاء الاستشهادي للحسين نموذجًا للارتكاز على الحق والاستناد إلى العدل. كان استشهاد الحسين نموذجًا لنا، من أجل الوقوف ضد الظلم، بما أوتينا من قوة إيمان وبدن. مقاومة الظلم والجَور حتى آخر قطرة دم.

لكن المختار لم ينتقم، ولم يثأر للحسين! نعم قتل القَتلة السفاحين، ولكنه هنا لم يكن خالص النية في انتقامه، وهذا هو الحد الأدنى! ولم يكن باحثًا عن العدل، وإنما إلى الملك والعدل كان يسعى. حتى عندما وصل إليه على جسر طَلَب دَمِ قَتلة الحسين، كان ما فعله عندما جلس على ذات المقعد الذي جلس عليه ابن زياد، أن تَحوَّل إلى حاكم فردي، وملك منفرد، وأعمَلَ نفس قواعد الحاكم الطاغية الديكتاتور.

قتل، وسفك الدم، وبحث عن التوسع ومد النفوذ، وحروب أهلية لا تنقطع، وادعى الوحي والحكم الإلهي.

انتصر المختار لدم الحسين، لكنه لم ينتصر لقِيَمه وشهادته وعدالته ومبادئه.

لقد صبَّ المختار ماء الانتقام في نفس المَصَب المسموم الذي رفض الحسين أن يقترب بفمه منه، وحاربه وقاتله. مَصَب الظلم والدم والسلطان.

مَصَب الدنيا المستندة إلى السيف والسلطة والباطل.

قتل المختار قَتلة الحسين.. نعم.

لكنه لم يثأر له!

نهاية

ظل المختار وحيدًا بين تسعة عشر جنديًّا. هذا كل ما تبقى له.

جيش ضخم، تَراجع وتقلَّص أمام جيش مصعب بن الزبير.

لقد نجح المختار في إلحاق الهزيمة بالأُمويين، لكنه نال الهزيمة من شقيق عبد الله بن الزبير.

وتبقى له تسعة عشر جنديًّا فقط نصحوه بالاستسلام، لكنه رفض تمامًا. وظل يقاتل وحده جيش مصعب، حتى مات. بعد موته خَلا العراق لمصعب بن الزبير، فنظر من قصره: ماذا يفعل برجال المختار وشيعته وأهله وأنصاره من الشيوخ والنساء والأطفال؟

كانوا ستة آلاف ينتظرون ما يفعل بهم مصعب. أشار عليه بعضهم أن يقتل هؤلاء، وآخرون نصحوه أن يُخلي سبيلهم، و... كثرت المشاورات والنصائح. لكن مصعب اتخذ قراره:

ـ اقتلوهم!

ثم دفنوا ستة آلاف جمجمة في الصحراء.

مقابلة تاريخية مع الحسين بن علي

فماذا تطلبُ بعدُ...
والطُرُق سد، والحزن مد؟

جلستُ على مقعد بلاستيكي أحمر، في النفق المحاط بالأرض، المحفور، بمتر.

المحطة، يحط عندها قلبي، وتستوحش العيون لون ورائحة النفق المطهَّرة المكيَّفة المصطنعة من هواء مريب، صاعد من أجهزة مُحكَمة تُدار بالأزرار الواردة من طقس فرنسي غريب. ينهزم أنفي أمام انكماش الألوان المزيِّنة للحوائط والجدران.

تنمحي بسمة الطفل المربوط بكفِّ أمه، عندما يقف عندي.

سيدة شابة، تشارك الهواء في زاوية المحطة وجبة الانتظار اليومية، تفرد ساقيها خجِلَتين تحت ردائها، تضع ظهر ساقها اليمنى فوق اليسرى، تغطي رتق الجورب واتساخ الحذاءين، تقبض على حقيبتها فوق فخذيها منتفخة بغطاء الرأس، تلبسه لحظة هبوب الرياح.

في قلبي مربَّع من الأحزان يتسع ويتشقق إلى مستطيل أجوف، إلى سداسي متزن، إلى دوائر رمادية، مثلثات محنطة، أقلام رصاص، وريقات تضيع في قاع الحقيبة، تذكرة المرور في ردهة مركبة عامة، منديل ورقي مسحتُ به عدسة نظارتي.

أعلن مذيع محطة مترو الأنفاق عن تعطُّل مفاجئ في كل الأدوات المؤدية إلى استمرار الأدوات الأخرى، ثم أطبق فمه وخرس.

بينما انبعثت موسيقى حادة قادمة من أجهزة معطَّلة بدورها، أُطفئت أنوار المحطة، وأظلمت وأقفرت وأبهمت وأقبرت، ثم عصفت ريح وأدبرت، فاقتلعت الحجارة والزلط و...

تزحف الطيور، زواحف من ثعابين وسلاحف، وتصعد النساء وأثداؤهن المنكمشات المذعورات المتقلصات اندهاشًا، ضيَّقت القضبان ما بين المسافات، ثم تلاقت واشتبكت، وتَلوَّت والتفَّت، ثم استقامت، ثم انفرجت، ثم التأمت، ثم انفجرت شظايا من حديد صدِئ مفتَّت.

وانغمرت المحطة بالضوء الباهت، والمبهِت، فأُعمِيَت البصائر، وكُفَّت العيون، تطايرت المقاعد، وانهدمت اللوحات الإعلانية المعدنية، تحطمت التماثيل المصنوعة المصطنعة المزيفة البرونزية، وانكسرت الآلات الحافظة للتذاكر، وانطلقت الأوراق الصفراء الحادة المقوَّاة المطوية المنقوطة بالتواريخ والعلامات والأرقام ومفاتيح المحطات القادمة.

جاءني ملَك الموت، دنا فدنوتُ، قبَّلني فقبَّلت، عانقني فعانقت، حطَّ الكفَّ، ونطق الحرفَ، ورسم الصفَّ، وقَصَّ الوصف، وابتسم فابتسمتُ، وأرحَلني فارتحلت، لكنَّ يدًا وقَّفته، وشفاهًا كلَّمته واستأذنته فأذِن وأذِنتْ، فأذِن وأذِنتْ.

وعانقتني اليد وصافحتني، وهمست الشفاه فأسمعتني صوته الدافئ، العابر ألفًا وثلاثمائة وسبعًا وستين من السنوات الهجرية، وأحدث في قلبي حَدَثه، وأعمَلَ...

وخرجنا من النفق، كفُّه في كفِّي، وأصابعه الكريمة في أصابعي، وشفتاه اللتان قبَّلهما النبي تحدِّثانني لؤلؤًا منثورًا.

وصلنا.

الصحراء مفتوحة السماء، منسيَّة الحدود، حطب وقصب، وخشب مُلقى خلف ربوة، والنار مشتعلة، والخيام منصوبة، والأحصنة واقفة متأهبة متهيبة.

تركتني أصابعه، وأودعني مكاني حتى لا أقترب، وسألني الانتظار، فوجدته يقف في الأرض المجدبة، وأمسك سيفه المشروع.

وفجأة...

ظهرت الخيول والسيوف والرماح والنبال والفرسان والرؤوس والأذرع، والزحام على الرمال المقلوعة تحت الحوافر.

وعرفته...

شمر بن ذي الجوشن، قائد ميمنة جيش عمر بن سعد، يمخر، ويدخل، ويحاصر بفرسانه ومُشاته ورجالاته. ورأيته ـ والله رأيته ـ يصرخ بالفم والعروق والأسنان والنواجذ والرموش، وجلده الأبرص:

ـ ماذا تنتظرون بالرجل؟ اقتلوه!

فدخل عليه أحدهم، وهمَّ بالانقضاض على رأسه. وحاولت أن أحرِّك ساقي أو ذراعي شبرًا في صحرائي عدْوًا إليه، فلم أستطع. فصرخت، فأسمعَتني الصحراء الصرخة ألفًا، محفورة في الريح والرمل والحجر.

ـ يا حسين... حاسب يا حسين!

لم يسمعني، ربما لأني لم أنطق.

فانقضَّ القاتل على رأسه بالسيف، فارتفع وهبط وانغرس في عمامته، فسقطت مسكوبة في الدم وبالدم وللدم. وقف الحسين يحمل سيفًا وحيدًا وحده، والجيش بالألف وراء الألْف يستدير ويلتفُّ ويقترب. ويصرخ ابن ذي الجوشن في الحرس:

ـ اقتلوه!

فينصرعون ويسعرون.

وأصرخ فأنخرس، وأنشطر فأحترس، وأهتف فأحتبس:

ـ لا تقتلوه! إنه ابن النبيّ لا كذب! لا تقتلوه، واتركوه لي، لأجل خاطري وخاطر أمي!

فيقتربون، ويزحفون، ويُلقون بسيوفهم في الجسد المثقل بالتاريخ، وبالمصحف، وبالدين، وبالعدل، وبالله، وبمحمد جَدِّه وسيِّده.

ينغرس الرمح في صدره، فيكبو.

وأبكي!

يفترس السيف جسده، فيجثو.

وأبكي!

مطعونًا من عشرات الأذرع بعشرات السيوف! فينام على الأرض، وأسمع صوت النبض يعلو ويرتفع، ويقتسم الريح ولون الدم وصفرة صحراء الكوفة، نصف سماء الأرض.

يملأ أذني، ويعبِّئ صدري، ويلثم أنفاسي، ويُمطِرني قطر الماء في اليوم الشتوي في شرفة منزلنا بالبلدة.

وتدنو الأحصنة وتعبر فوق جسده، اثنا عشر حصانًا فوق الصدر والظهر والعصب والجلد والعظم والمرفق والرسغ، وتنسحب.

ويقترب ابن ذي الجوشن جنب عمر بن سعد، ينادي خولي بن يزيد أن ينزل عن فرسه فيحتز رأس الحسين.

فأصرخ:

ـ يا حسين!

ألهث ظنًّا مني أني أجري، فأعود إلى الخلف، كدوَّامة بحر ألقتني

في جُب الموت يوم تركتني الرحلة وانصرفتْ، فناديت المُشرف أن يرجع إليَّ يُنقذني، أمد اليد وأصرخ: الحقوني. لا يجيب المُشرف، فأعيد الصرخة للمُشرف.

- يا حسين!

لا يسمعني المُشرف، ولا الحسين، ولا شمر بن ذي الجوشن، ولا عمر بن سعد، ولا خولي بن يزيد. فيهبط عن فرسه ويركب القبح إلى المسافة الفاصلة بينه وبين الجسد المسجَّى الملقى.

يقترب. ويرفع سيفه بقبضته إلى الهواء، وبالذراع إلى الفضاء. يتردد، يتوجس، يتريث ويتفكَّر، ويقرِّر، فيمرِّر السيف إلى الجسد، إلى الرأس، فيقطعه وينزعه ويرفعه، ويحمله إلى شمر بن ذي الجوشن، فيأخذه، ويلكز فرسه، ويعدو إلى الصحراء.

ويسافر من عيوني الجنود والسيوف والرماح، وترحل.

وأهتف:

- يا حسين!

فتتحرك قدماي، وأجري، وأقترب، وأنكفىء، وأجثو جنب الجسد وأبكي، وأجد اليد على كتفي حانية، تنهمر بالعطف والحنو:

- قم.

فأقوم فأجده، فأسعد، وأبتهج، وأرفرف بالفرح، وأعدو بالجري كما جريت في الزمن الماضي، وأصرخ وأمرح، وأقبِّل خدَّي أمي

(في الحلم أم في العلم؟) وأحمل فاطمة طفلتي الناعمة الناعسة، وأطير أطير حتى يأخذني بكفِّه، يُهدِّئ روعي، ويؤذِّن في سمعي، فأرتكز وأطمئن، وأنشرح وأتيسَّر.

ويأخذني. ونخرج من صحراء الكوفة ونسير، حتى يأكل التعب عظمي، ويقتل خطوي، ويوهن عزمي.

ألتفت إليه وقد أحاطته الصحراء بصفرتها وهجيرها وهضبتها ورسمة الشمس فوق الجبال، ولهب الرمال المعصورة بأشعة النهار الراحل.

كان العَرق يُغرقُني، ويسبح في جِلدي، ويمخر مسامِّي، بينما كان وجهه تحت العمامة منيرًا مضيئًا باسمًا حانيًا، في عينيه بشارة النور الآتي، لون الحقيقة الذاهبة، لا العَرق عرف طريقه إلى جبينه، ولا تعبٌ خطَّ خطواته إلى قدمه. فاقتربت:

ـ سيدي وإمامي، هل لنا في قطرة راحة نبحث فيها عن قطرة ماء؟

دار بعينيه ورأسه إلى الصحراء، تحاصرنا وتخبطنا وتعتقل فينا المحاولة.

قال لي وقد افترَّ فمه عن ابتسامته الخلودية، وقد مسَّت أصابعه منكبي، فاستوى واعتدل:

ـ إنك لن تستطيع معي صبرًا.

وخزتني الجملة، فبكيت، وانهمر دمعي المستعد، وشجني

المُشرَع، فمسح بكفِّه الدمع المشقوق في الخد وتحت العين وفوق الشَّفه.

وعادت كلماته:

-إنك لن تستطيع معي صبرًا، وكيف تصبر على ما لم تُحِط به خبرًا.

دنوت حتى صدره، ووضعت رأسي على كتفه، وانهمرت في دمع لا معدود، وحزن لا مردود، وجرح لا محدود.

ربَّت عليَّ، وقال:

- يا ولدي، بعد مئات السنين، كشف الله لك صحرائي، ورسم لك صورتي، وأعلمك بحالي، وأراك قتالي، فماذا تطلب بعدُ، والطرقُ سد، والحزن مد؟

فأخذني بكاءٌ شديد، وغمٌّ مقيم، وكربٌ مستقر، وركبني الحزن، وأغرقني الدمع، وانشطر قلبي، وتَهجَّد لساني، وشعرتُ ضلالي، ورأيت متاهتي.

فالتفت إليَّ الحسين حانيًا باسمًا:

- لا تخَف، لن أتركك وحدك، وسآخذك حتى دارك. هيا.

فأمسكت بطرف عباءته، ومضيت نحو شارعي، أبحث عن بيتي.

أدهشني هذا الهدوء الكامل، في ذلك الشارع الذي لا يهدأ أبدًا، تزسجر مركباته النامة، وتزدحم إشاراته، وتعصف الضوضاء بآذان العابرين، والمنتظرين على محطات المركبات قدومَ حافلاتهم المزدحمة.

لم نكَد نمر على الدوران المنعطف إلى جسر النهر الذي يفصل بين جرحى المدينة، حتى تمكَّنت مني الدهشة تمامًا، وأنا ألجأ بخوف أصابعي إلى أمن كفِّ الحسين.

الشارع ساكن إلا من بعض العابرين، والدكاكين مُغلَقة، والأبواب مُقفَلة، والستائر تحجب مداخل أبواب المطاعم الخالية، والأسوار المحيطة بالمعاهد ازدادت ارتفاعًا وبلغت حدًّا شاهقًا!

كان الحسين سائرًا مطمئنًّا، على الرغم من غرابة المكان ووحشة الشارع وأسفلت الطريق المحاط بالأرصفة المبلَّطة، وطلاء البياض والسواد اللزج الطازج يجذب نعل الأحذية للالتصاق.

لكنَّ الأمر تَكشَّف، والسر انكشف، عندما بدأت صفوف الجنود المتراصة على الجانبين، تظهر لعيني التي لم تكن قد اعتادت الانتقال من الصحراء الأولى إلى الصحراء الآخرة.

نظر الحسين متمتمًا، وأنا أخشى إرهاق عينيه بالمستدهشات الجديدة، كانت أَكُفُّ الجنود الخشنة الثقيلة تمسك بدوائر حديدية تخر.

سبحت عيون الحسين، وأنا أسترق السمع إلى صوت الرئيس يخرج من المذياع المثبَّت فوق سطح مقدِّمة سيارة نقل الجنود، الرابضة جوار الرصيف، يحكي عن أحدث انتصاراته، وآخر وعوده، وحقيقة رعوده.

صوت المذياع يكسو آذان الجميع، ويستولي على هدوء الشارع المقتول صمتًا.

خَلت النوافذ والشرفات وأسطح الدور والبنايات من سكانها، إلا عددًا من الرؤوس التي تخرج فوق الأسطح تستكشف سيرة الأمن ومسيرة الحراسة، وتتربص بالجواسيس والمخربين المزعومين.

اشتدت قبضة الجنود على الحديد، وارتفع «زعيق» الضباط في أجهزة البث، اهتزَّت النسور.

أحاط الحسين المكان بنظرته وهو يتعجب من البناية الزجاجية الشاهقة، والحروف الإفرنجية، والتراب الذي يكسو جدار البنايات القديمة ونوافذ الناس المغلقة.

تقدَّمت «صفارات» لتنهي حالة السكون المصطنَع.

أسرعت نحو الشارع سِتُّ سيارات من طراز فرنسي حديث، مُجهزة ومصفَّحة، ومثبَّت فوق سطحها أعمدة هوائية، تخرج من خلف زجاجها عيون البصاصين والخفراء والحرس.

عبرتُ. واستمات جندي فوق الحديد حتى دَمِيت كفه، بينما انطلق عَرق كثيف من جبين جندي آخر حتى بلل ياقته، ثم سقط فوق مقدمة حذائه.

جاءت عشرون درَّاجة مفزعة، يقودها لابسو الخوذات، قابضو الأكف فوق مِقوَد الدراجات، تزمجر وتهدر بصخب مدبر، تسير على الجانبين في صفين منتظمين وبإيقاع واحد من لهث العجلات.

تقدمتْ عربات عسكرية مكشوفة، جلس على جانبيها العسكر

بملابسهم وأسلحتهم تأهبًا. الصدور مفتوحة، ومستقيمة الظهر، يضغط الفك فوق الفك، وتحفر مقدمات الأحذية بطن السيارات.

ثم انطلق نفير متقطّع.

ومرّت عربات مُغلقة سوداء، ثم انكشفت عن سيارة طويلة فارهة سوداء.

خرج الحسين من حصار الجنود، وأزاح سور الحديد والحبال، هبط من الرصيف إلى عمق الأسفلت ووسط الطريق، ووقف قبالة السيارة تمامًا، التي أصدرت صريرًا مزعجًا؛ التهمت عجلاتها الأسفلت وهي تحاول التوقف المفاجئ.

برقت عيون الجنود، وارتفعت الأسلحة، وتأهب القناصة، وتوقفت الدراجات البخارية، ونزل الجنود من سياراتهم، وانفتحت النوافذ من السيارات، وهبطت مئات الأقدام من المركبات، وشُرِعت أجهزة البث فوق الشفاه.

حاولتُ أن أهتف للحسين، فعجزت كأني في صحراء الكوفة، صارخًا من دون أن يسمعني، باكيًا من دون أن يراني. أردت تحذيره، وعجزت عن إنذاره، وهتفت لتوقيفه، وخرست عن إبعاده.

وقف الحسين ثابتًا مستقيمًا، شامخًا هائلًا، استلّ سيفه من موطنه، رفعه في الهواء مناديًا:

ـ أخيرًا يا يزيد!

ألقى بعباءته على الأسفلت الساخن:

- انزل يا يزيد!

ارتعشت أكُفٌّ، واهتزت أقدام، وترنحت أسلحة، وتَسمَّرت أبدان، وانشرخت صفوف، وتَخوَّفت، ثم شعروا أن الأمر هزل، وأن الرجل مخرِّف، فاستكانوا للطمأنينة.

واجتمع الجند من كل صوب، وصرخ الحرس في كل حَدَب، وأحاطوا بالحسين في دائرة واسعة، ووجهوا إلى صدره الأسلحة.

وأنا أصرخ:

- يا حسين!

فلا يسمعني، ولا يجيب.

أنادي خائفًا مرعوبًا من موتة أخرى وذبحة ثانية:

- يا حسين!

أحاول أن أنبههم، أن أستعطف قلوبهم، أن أوقظ عقولهم:

- إنه الحسين بن علي بن أبي طالب، حفيد النبي صلى الله عليه وسلم، ابن بنت رسول الله!

انشغلوا في السيوف والبنادق والرماح وأسنة المدافع سريعة الطلقات. انغمسوا في الدروع والسيارات، في الرمل، في الأسفلت، في أوامر ابن ذي الجوشن، وصوت المذياع يعلن تهليل الجماهير للموكب.

هبط الرئيس من سيارته، ببذلته السوداء وقميصه الأبيض، ورباط عنقه المُحكَم، تتسع ابتسامته المستفهمة، خَطَا نحو الحسين، وقد أفسح جنده له مكانًا.

ألقى الرئيس أمره:

ـ لا تقتربوا منه. إنني أريده.

لكنه لمَّا دنا ورأى، ونظر في عينيه وقبضة يده، شُلَّت عيناه، وعجزت قدماه، وبُهِت رأسه، واتسعت أسنان فمه عن ذعر أبدي.

صرخ فيه الحسين:

ـ بارز يا يزيد، وأنهِ صراعًا طال أمده، وقتالًا كثُر دَمُه! أرِني قُوَّتك من دون حرسك، شجاعتك من دون فرسانك.

أبعد عمر بن سعد وابن ذي الجوشن، واقترب وبارز، ارفع سيفك وقاتل.

أنا الحسين. أبحث عن عدل قتلتموه، وبلد أفنيتموه، ووطن دمّرتموه، وشعب قصمتم ظهره، وركبتم دُبره.

هتفتُ بالحسين مرتجفًا محزونًا جزعًا ملهوفًا مهزومًا مكسورًا:

ـ يا حسين!

تشنَّج الحراس، ولوَّح كبيرهم صارخًا:

ـ ماذا تنتظرون بالرجل؟ اقتلوه!

اقترب العسكر بالأسلحة والمدافع والبنادق وخوذات الجنود وثياب العسكرية والأحذية الثقيلة، والصفوف المنظَّمة والطلقات المنتظمة.

صرختُ، وعدوت، وجُننت، وقفزت، ولطمت وجهي، وكسرت عظمي.

أطلقوا الرصاص، تخرق انفجاراته من فوهات البنادق الأذن والقلب وأكباد الرجال، انغرس في جسد الحسين، وانبثق الدم من جسده مندفعًا غزيرًا طاهرًا.

تَرنَّح، وجثا على ركبتيه، ورقد بجسده المغربَل بالرصاص، الغارق في الدماء، ومات!

هبط أحدهم من سيارته الضخمة، ممسكًا بمدفع له نصل معدني كالسيف، اقترب من جسد الحسين المُسجَّى. يقترب، ويرفع السيف إلى الهواء، وبالذراع إلى الفضاء، يتردد، يتوجس، يتريث، يتفكر، ويقرِّر، فيمرِّر السيف إلى الجسد، إلى الرأس، فيقطعه وينزعه ويرفعه ويحمله إلى سيارته، فيأخذه، ويأمر سائقه فيمضي.

ويعدو الرئيس في الشارع يلوِّح للناس ويحيِّي الجموع!

وترحل عني السيارات والجنود والمدافع، والسيد والسادة، والحراسة والقناصة.

وأهتف:

ـ يا حسين!

وحيدًا في الشارع، مقتولًا مذبوحًا غارقًا في دمه السابح على الأسفلت.

أقترب منه. لكن المركبات العامة والسيارات الخاصة والعابرين والنفير المنطلق والأقدام المسرعة والدراجات اللاهثة، والأحصنة تجرُّ العربات الخشبية، تمنع عني الحسين، تدوس جسده، وتدهس بدنه.

أصرخ:

ـ يا حسين!

فيضحكون، ويسخرون، ويهزَأون. ويرسمون بأصابعهم علامات ضياع عقلي وذهاب مُخِّي!

الفهرس

الجزء الثاني

بحـــر الـــدم

هل وقته الآن الكلام عن الحسين؟

نعم، في كل وقت نحن في حاجة إلى هذا الزمن، ومع كثرة ما كُتب - وما قُرئ - عن الحسين سيد الشهداء وسيد شباب أهل الجنة (جعلنا الله من شبابها... يا رب) فإن كثيرا من العيون والأقلام أغفل الحديث عمّا بعد مقتل الحسين... ماذا جرى تحت اسم دمائه الطاهرة؟

ستجد في هذا الكتاب شيئا مما أريد أن أقوله، لكن لن تجد كل شيء تمنيت أن أقوله، وعليك أنت أن تقرأ وتخرج بما تريد.

لكن ما أضمنه لك، أمران:

الأول: أنك ستُحب سيدنا الحسين أكثر. والثاني: أنك سترى هولا لا تطيقه، ودماء لم تعهدها، وأحداثا أغرب من أن تتخيلها. وكل هذا حقيقي، وسنده الأساسي ابن كثير والطبري.

عندما أعدت قراءة كتابي هذا، قررت أن أحذف منه كثيرا وأضيف إليه أكثر. لكنني كلما كنت أحاول، أعود فأرى الدم المراق، والأحصنة اللاهثة، والسيوف اللامعة، وألسنة النار، وألوان الخيانة، ودفقات الجثث، وصراخ الثكالى، وجموع الرؤوس المقصوفة والمذبوحة. فلم أحذف، ولم أضف.

إبراهيم عيسى

www.bqfp.com.qa
978-99921-95-63-5
90100
9 789992 195635
دار بلومزبري - مؤسسة قطر للنشر
BLOOMSBURY QATAR FOUNDATION PUBLISHING
مؤسسة قطر
Qatar Foundation
تصميم: عمرو الكفراوي


Exclusive
For
www.ibtesama.com